المملكة العربية السعودية
جامعة الملك سعود
كليـة العلوم الإدارية
مـركـز البحـوث



الوجه الحضاري لتجربة الاقتصاد الاسلامي
في العصور الوسطى

الدكتـــور
وجـــدي محمـــود حســـين




بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية



كليـــة العلوم الادارية
مركـــز البحوث

*****

الوجه الحضـارى لتجربـــة الاقتصاد الاسلامـــي

في العصــــور الوسطـــــي

دكتــــور

وجــدى محمــــود حســــين

مطابع جامعة الملك سعود

مقدمـــــــــة

بزغ الاسلام في فترة من الزمن أدرجها مؤرخو التاريخ الاقتصادى لحياة الامم فيما عرف بالعصور الوسطي ، وهي فترة لم تستطع الحضارات التي عرفها المجتمع البشرى قبلها أن تكفل لحياة الانسان رفاهية حقيقية يسودها العدل والكفاية والامن والرخاء ، ففي أوربا كان يهيمن نظام الاقطاع على المجتمع بما احتواه من تأخر في مستوى الانتاج وعلاقات الاستغلال والعبودية فضلا عن انتشار الاوبئة والجهل والتأخر الفكرى كما كانت الجزيرة العربية ذاتها ـ مهد الاسلام ـ تعيش حياة قبلية بدائية لقبائل رحل تعاني القفر وضآلة الرزق ، وتقتسم الموارد المحدودة المتاحة على سبيل المشاركة ، وتعتمد في كثير من الاحيان علي الغزو والاغارة على موارد العيش .

وعند ظهور الاسلام ، بما أضاء به حياة الانسان الفكرية والاجتماعية والاقتصادية من قيم وأفكار ونظم ، شكلت حضارة كاملة تمثل انجازا كبيرا في مسيرة تقدم الانسان وارتقاءه نحو غاية تحيطها مفاهيم واضحة لموقع الفرد من الكون والخالق والمجتمع ، كما كان الامر بمثابة ثورة فكرية واجتماعية انعكست علي واقع النشاط الاقتصادى وعلاقات الانتاج في الامة الاسلامية ، وكان في مبادئ وقيم النظام الاقتصادى الاسلامي من واقع القرآن الكريم والسنة واجتهاد مفكريه في المسائل الاقتصادية ما أثمر وبلور تجربة رائدة في التاريخ الاقتصادى للامم ، تؤكد الدور الحضارى الكبير للنظام الاقتصادى الاسلامي في النهوض بمستوى المعيشة والتقدم في مختلف قطاعات الانتاج من حيث تطور فنونه وتحسين علاقات الفئات المساهمية فيه نحو الرفاهية والعدالة وتكافؤ الفرص .

ويهدف المقال فى المقام الاول للكشف عن الاسهام الحضارى لتجربة النظام الاقتصادى الاسلامي خلال فترة القرون الوسطي ، بالمقارنة علي ماساد من نظم وعلاقات الانتاج خلال الفترة المذكورة سواء في أوربا أو البلاد التي انتشر فيها الاسلام .

كما يهدف بحثنا الي بيان أثر التحول الاجتماعي الذى أسفرت عنه مبادئ الاسلام فى المجال الاقتصادى ، علي السلوك الاقتصادى والعلاقات الانتاجية والاهمية النسبية لمختلف الانشطة الانتاجية في ظل الدولة الاسلامية ،هذا فضلا عما ساهمت به حضارة الاسلام في هذا المجال من تحقيق التقدم والمدنية والانماء الاقتصادى لبلاد أوربا التي جرت بينها وبين المسلمين احتكاك سواء من خلال التوسع الاسلامي بجنوب أوربا أو من خلال الحروب الصليبية .

وفي مباحث ستة نقسم موضوعنا كالاتي :

مبحث أول : موقع الحضارة الاسلامية في التاريخ الاقتصادى .

مبحث ثان : ظهور النهضة الاقتصادية للاسلام مقارنة بظهور النهضة الاقتصادية لاوربا .

مبحث ثالث : الاقتصاد الاسلامي ثورة اجتماعية اقتصادية مبكرة .

مبحث رابع : تطور الانشطة الانتاجية الرئيسية في ظل الاسلام .

مبحث خامس : السياسة الاقتصادية والمالية وادارة أموال المسلمين .

مبحث سادس : التأثير الحضارى للاقتصاد الاسلامي علي أوربا والعالم .

خاتمة

المبحث الاول

موقع الحضارة الاسلامية في التاريخ الاقتصادى

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل علي
العالمين" ٠(البقرة ٢٥١) ٠
صدق الله العظيم

نتناول في هذا المبحث :

* أهمية العامل الاقتصادى فى التاريخ ٠
* جدوى التاريخ وأهمية العرض المحايد لمقومات التجربة الاسلامية في الاقتصاد ٠

١ ـ أهمية الاحوال الاقتصادية في التاريخ والحضارات :

ان طبيعة مسيرة الانسان عبر مدارك التقدم في المجتمعات البشرية ، تتنوع من مرحلة لاخرى بحسب ظروف المرحلة وتطلعات الانسان وامكاناته ، ويشكل التاريخ الاقتصادى لتطور سعي الانسان فى مواجهة مشكلته الاقتصادية ، محورا يصفه البعض بأنه القاعدة والاساس فى تطور النشاط الانسانى عبر التاريخ العام (١)

فمن سعي لتوفير ضرورات المعيشة في حياة بدائية الي تحكم قوى الطبيعة وتسخير للموارد لتعزيز القوة الذاتية ونفوذ الجماعات ، الي منافسة بين الدول تأخـذ شكل صراعات علي موارد الثروة والنفوذ الاقتصادى ٠

---

(١) د٠ أمين مصطفى عفيفي ، د٠ أحمد عبدالكريم ، تاريخ أوربا الاقتصادى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٥٤م ، ص٦ ٠

وقد أكد ابن خلدون علي أهمية العامل الاقتصادى — ممثلا في النشاط العمراني من تعمير الارض وتنمية الموارد زيادة ثروة الامة — في التعرف على الاخبار الحقيقية لتاريخ الامم ، فجاء في مقدمة ابن خلدون (٢) : " ان التمييز بين الحق والباطل في الاخبار لابد فيه من النظر الي الاجتماع البشرى الذى هو العمران " • كما قرر أنه " لاعزة للملك الا بالرجال ، ولاقوام للرجال الا بالمال ، ولاسبيل الي المال الا بالعمارة ••• " و " المال بالخراج والخراج بالعمارة ، والعمارة بالعدل •• "

وللتطور الاقتصادى مكانته التي شغلت موءرخي الغرب في التعرف علي مقومات حياة الناس في العصور المختلفة وأساليب مواجهتهم لصعوبات السيطرة علي البيئة لاشباع حاجاتهم من خلال نشاطات الانتاج المختلفة ، وطبيعة العلاقات التي تحكم فئات الافراد المساهمين في تلك النشاطات مما يضاف الي قيمهم وثقافاتهم ووعيهم الفني فيشكل قوام حضارات الشعوب عبر الزمن •

وقد تصدى الفكر الماركسي وأصحاب المذهب المادى في تفسير التاريخ لبيان أهمية العوامل الاقتصادية فى التطور التاريخي ، هذا وان كان المذهب المذكور قد تعرض للعديد من سهام النقد لما فيه من غلو في القول ، بأن قوى الانتاج والعلاقات الانتاجية تشكل الاساس في كل نظام اجتماعي ، لدرجة تجعل من التطور الاقتصادى المرتكز لكل تطور سياسي واجتماعي وديني وفلسفي •

ويقر الباحثون الحديثون في التاريخ الاسلامي بأهمية العامل الاقتصادى في تحقيق الاستقرار الحضارى حين يصف البعض (٣) ماأسبغه النظام الاسلامي من اهتمام جديد بالارض والنشاط الزراعي الي جانب نشاط التجارة تحت تأثير النظرة الجديدة للدخل من الزراعة وملكية الارض كعوامل محترمة للمكانة الاجتماعية بعد حياة التنقل القبلية وحركة الغزوات والفتوح (٤) •

---

(٢) ابن خلدون ، عبدالرحمن ، المقدمة ، طبعة وافي جـ١ / ١٩٦٨م ص ٢٦٧ •

(٣) د • عبدالعزيز الدورى ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص٨٦ •

(٤) الامر الذى بدأ معه اشراف العرب يحرصون علي تحويل الارض الخراجية الي أرض عشورية في الربع الاخير من القرن الاول الهجرى •

والحق أن التاريخ الاقتصادى لحضارة الاسلام يزخر بالوقائع والاحداث التي ولدت آثارها العميقة في الحياة الاقتصادية للفرد والمجتمع — في اطار قيم العدالة الاجتماعية والسلوك الاخلاقي التي أرساها الاسلام في ظل الدولة الاسلامية وخاصة في عهد الخلفاء الراشدين •

وبرغم ذلك فان مؤرخي التاريخ الاسلامي والعربي قد استغرقهم الاهتمام بالاحداث السياسية والحربية ، فلم يطرقوا باهتمام كاف بيان الوقائع الاقتصادية التي تصف الاحوال المعيشية وتطور مستوى النشاط الاقتصادى في ميادين الانتاج المختلفة في الدولة الاسلامية ، بما يتضمنه ذلك من وصف طابع النشاط الانتاجي والعلاقات الانتاجية بين الفئات المشاركة في الانتاج وآثار ذلك على الوجه الحضارى للاسلام ونظمه الاجتماعية والسياسية (٥) •

ولتطور الوقائع وظروف البيئة الاقتصادية أيضا تأثيرها علي علم الاقتصاد ذاته ، فالاقتصاد علم اجتماعي يسعي لدراسة المشكلات الاقتصادية وتوفير الحلول لها ، وهو يرتبط لذلك بتطورات البيئة الاقتصادية وما تشهده من تغيرات في حجم الموارد المتاحة ومستوى المعرفة الفنية السائد •• وها هي النظرية الاقتصادية في الجانب الاعظم منها تدور — وقد نشأت في ظل نظام السوق الرأسمالي فى أوربا — حول افتراضات النظام المذكور من سعي الوحدات الاقتصادية المنتجة والمستهلكة علي أساس الرشادة الاقتصادية Economic Rationality التي تكفل الربح للمنتج والمنفعة للمستهلك ، مما تأثر بالمذهب الفردى (٦) •

---

(٥) د• أمين عفيفي ، المرجع السابق ، ص ٧ •

(٦) راجع في ذلك : Bhatia, H., History of Econ. Thought, Vikas House, Ghaziabad, India, 1980, p.5.

ومن هنا كانت أهمية التعرف على تطورات وقائع الاقتصاد الاسلامي في ظل القيم الاسلامية مما يمكن أن يسهم في بناء للنظرية الاقتصادية يستهدى بمبادئ الاسلام ويستشهد بواقع تجربته في صدر الدولة الاسلامية مما تحقق به النمو الاقتصادى الكبير في ظل حضارة الاسلام •

٢ ـ جدوى التاريخ وأهمية عرضه المحايد :

كم من نظريات وسياسات عرضها أصحابها في اطار منطقي متسلسل الفروض والنتائج ولكنها لم تتخطي مجال الفكر الي واقع الحياة ومحك التجربة ، ومن النظريات والنظم مانزل الي حقل التجربة فثبت فشله وتغلبت سلبياته علي ايجابياته ، وفي مثالية مجتمع أفلاطون وفي الاشتراكية الفابية والشيوعية وغيرها الامثلة علي أن الفكر شيء وجدواه التطبيقية في مجال الواقع والتجربة شيء آخر •

وربما يكون في ذلك مايبرر عودة البعض ـ مثلما يفعل الكاتب في هذا المقال الي عمق التاريخ ليستظهر منه أمثلية نظام الاقتصاد الاسلامي في ضوء المفهوم العصرى الحضارى لتقدم المجتمع البشرى ورفاهيته الحقيقية ، ولاشك أن عودة الاقتصاديين المعاصرين الي منابع الاسلام وتجربته الفريدة في أوج ازدهارها ، لايعد اليوم تغن بأمجاد الماضي بقدر ماهو عرض وتمحيص لوقائع التاريخ كبرهان ناصع علي سبق وأمثلية المنظور الاسلامي للتقدم الانساني في مجال النشاط الاقتصادى للفرد أو المجتمع ، وجدوى الرجوع اليه في مواجهة حاضر المشكلات الاقتصادية •

والرجوع لتاريخ الاقتصاد الاسلامي ـ فيما يفعل الكاتب ـ ضرورة أدركها حتي بعض مفكرى الغرب المسيحي (٧) • في معرض المفاضلة والانتقاء مابين النظم الاقتصادية التي عرفها المجتمع البشرى ، ويتصل بهذه الضرورة أهمية تنقية

---

(٧) كان أول من اهتم بدراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للتاريخ الاسلامي من موءرخي الغرب C. Becker, 1. Goldziher, Cl. Cahen

التاريخ الاسلامي من شوائب العرض المتحيز أو السرد غير الواعي بالقيم الاسلامية التي استظل بها وانصهر فيها الاقتصاد الاسلامي من واقع تجربته (٨) ٠

ويقال أن حقائق التاريخ المعروفة سواء وجدت في الوثائق أم لم توجد ، فانها لابد أن تخضع لصنع المؤرخ الذى يلون عرضه للوقائع ، انتمائه السياسي أو المذهبي أو تفسيره الخاص (٩) ٠

وحيث بزغت تجربة الاقتصاد الاسلامي في أواخر القرن السابع الميلادى وخلال ما اصطلح علي تسميته بفترة القرون الوسطى ، فان ظهور ذلك النظام الاقتصادى كجزء من الحضارة الاسلامية ، كان في مرحلة سبقت بزمن عصر النهضة الاوربية والكشوف الجغرافية والتوسع الاقتصادى والاستعمارى الاوربي والثورة الصناعية ، مما انكب عليه مؤرخو التطور الاقتصادى الغربيين فكان محور دراستهم واهتمامهم ، دون التفات أو توقف عند تجربة الاقتصاد الاسلامي كجزء من حضارة الاسلام ومن وقائع التطور الاقتصادى العالمي بوجه عام ٠

---

(٨) فالبرغم مما نهج اليه علم التاريخ حديثا من التركيز علي بعض الحقائق المؤكدة التي تظهرها الوثائق والنقوش ، فان المؤرخين لهم دورهم في اختبار نوع الحقائق التي يبرزونها من خلال تفسير المؤرخ ذاته لحقائق التاريخ (راجع في ذلك : ادوارد كار ، ماهو التاريخ ؟ ترجمة : ماهر كيالي ، وبيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط ٢ ١٩٨٠ ، ص ١١ ، ١٧٤) ٠

(٩) ومن قبيل ذلك ماساد عرض مؤرخي القرن التاسع عشر للتاريخ الاقتصادى من نظرة ليبرالية تتأثر المذهب الاقتصادى الحر ، كما أن المؤرخ قد ينقصه الفهم التصورى لاذهان الناس والقيم السائدة في العصر الذى يؤرخ له ومثال ذلك وصف مؤرخي القرن التاسع عشر للعصور الوسطي من خلال شعور الازدراء للبربرية والمعتقدات الغيبية في تلك العصور ٠

كما أنه مما لايمكن انكاره أن نزعة التعصب ضد حضارة الاسلام ونظمه ـ التي صاحبت الحروب الصليبية خلال القرن الحادى عشر وما تلاه ـ كان لها أثرها في طمس واغفال خصائص التفوق الحضارى في نظام وتجربة الاقتصاد الاسلامي .

وسواء استمر تأثير هذه النزعة ـ وهي قائمة فعلا ـ أم لم يستمر ، فان عصرنا الحاضر في حاجة الي فهم تصورى كاف لجوهر النظام الاقتصادى الاسلامي من واقع تجربته ، بما ساده من قيم أخلاقية وايمانية يفتقد استيعابها الاقتصاديون الذين يدينون بايديولوجيات الغرب الرأسمالي ، أو الشرق الاشتراكي .

ولعل أبرز الامثلة علي صبغ العرض التاريخي للاحداث الاقتصادية بلون مذهبي منحي مدرسة المادية التاريخية التي تعتنق المذهب المادى المسبق في تفسير التاريخ .

ولدى متابعة أحداث ووقائع التاريخ الاقتصادى في الاسلام ، ينبغي أن ننظر للتراث نظرة علمية محايدة تنأى عن مزالق التفسير المتحيز لفكر مسبق ،بل يأتي التفسير تاليا لثبوت الوقائع التاريخية وحجيتها ومتمشيا مع تلك الوقائع (١٠) .

ان الصراع الفكرى والجدلي الدائر بين ايديولوجيات النظم الاقتصادية السائدة ، يمكن أن يجد منتهاه اذا ماجرى استخلاص عبرة الماضي ـ من خلال تجربة الاقتصاد الاسلامي ـ في موضوعية تنشد وجه الحقيقة ، للافادة من خبرة الماضي في التغلب علي صعوبات الحاضر ومشكلاته . وفي ذلك يتحقق مايقصده ادوارد كار في وصف مهمة المؤرخ من النظر الي الماضي وفهمه واستيعابه كمفتاح لفهم الحاضر (١١) .

---

(١٠) راجع في تفنيد ذلك : فتحي عثمان ، التاريخ الاسلامي والمذهب المادى في التفسير ، الدار الكويتية ، ط ١ ، ١٩٦٩م ، ص ٣٧ ، ٣٠٩ ـ ٣٢٢ .
يقدر المؤلف أن " التجرد الكامل في الدراسات الانسانية ـ وبخاصة التاريخ ـ عسير مرير " (ص ٤٧) .

المبحـــث الثانــــــي

ظهور النهضةالاقتصادية للاسلام مقارنــة بظهور النهضة الاقتصاديــة لاوربـــــا

"هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها " (هود ٦١)

نتناول في هذا المبحث :

* أحوال الاقتصاد العربي والاوربي عند ظهور الاسلام ٠
* ظهور عوامل النهضة الاقتصادية في اوربا مقارنة بنهضـــة الاقتصاد الاسلامي ٠

١ – أحوال الاقتصاد العربى والاوربي عند ظهور الاسلام :

الاحوال الاقتصادية في شبة الجزيرة العربية (*) :

كان سكان شبة الجزيرة العربية من القبائل الرحل – المنعزلة فكريا عن الخارج – المتنقلة في نشاط الرعي والزراعة وراء مصادر المياه من مساقط الامطار والينابيع ، وكان البناء الاجتماعي للقبيلة يقوم علي العصبية الجماعيـــة لعلاقة الدم والقرابة والنزعة الفردية ، فكانت القبيلة علي هذا الاساس هي الوحدة المتماسكة لمجتمع البدو (١٢) ٠

(*) راجع في ذلك : شلبي ، د٠ أحمد ، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلاميــة جزء ١ ، طبعة ١٩٧٤م ض ١٣٤ – ١٤٥ ٠

(١٢) ويرتبط التكوين الاجتماعي للقبائل بنظام العشيرة والاقوام ، ويحتل مركز شيخ القبيلة أهمية خاصة ، فهو يتصف بالشجاعة والكرم وله الاحترام وهو الذى يرعي شئوون القوم ويلجأ اليه الضعفاء وذوى الحاجة فهو ركن مــن أركان شركة الشيوع في أموال القبيلة ٠

وكان النشاط الاقتصادى يقوم علي مبدأ الملكية المشاع أو المشاركة الاقتصادية في الموارد المتاحة من المياه والارض والمراعي وينتفع كافة أفراد القبيلة من ثروتها كل بقدر حاجته ، ويعمل الجميع لتنمية الثروة (١٣) .

وتوصف الاحوال المعيشية لاهل شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة بقفر حياة البادية وضآلة الرزق (١٤) مما اضطرهم لسد حاجاتهم بالكاد عن طريق الشيوع وتقاسم المحصول أو الصيد .

وكانت أدوات الانتاج بدائية بسيطة كالقوس والسهم والشباك وكلاب الصيد كما كان نشاط الغزو والاغارة لجلب الثروة واقتسامها أحد أركان البناء الاقتصادى ويطلق البعض علي هذه المرحلة الشيوعية البدائية (١٥) .

وبالاضافة الي القبائل كانت توجد جماعات الصعاليك الذين خرجوا في تمرد أو طردوا من قبائلهم وتضم هذه الجماعات الشذاذ وأبناء الاماء والفقراء المتمردين وكانت علي استعداد مستمر للغزو وسلب الاموال واقتسامها (١٦) .

---

(١٣) حيث تقتسم القبائل صيد اللؤلؤ والاسماك ومناجم الملح والنخيل والمراعي ومزارع الشعير .

(١٤) Kirk, A Short History of the Middle East, p. 7.

(١٥) شلبي ، د. أحمد ، التطورات الاقتصادية في العالم عبر التاريخ ص١٨

(١٦) وان اتصف الصعاليك بالتماسك والتعاون وحماية حق الضعيف وعدم التعرض لاموال الاغنياء الاسخياء أو الفقراء المحتاجين .

كما كانت التجارة نشاط اقتصادى رئيسي في شبه الجزيرة ، وكانت للعرب أسواقهم الشهيرة (١٧) ، أما الصناعة ، فكان العرب أبعد ما يكونون عنها (١٨) ولذا كانوا يعتمدون علي غيرهم في القيام بالحرف الصناعية مثل الروم أو الفرس فى صناعة البناء •

الاحوال الاقتصادية في أوربا :

ظهر الاسلام خلال ما عرف في تاريخ أوربا بفترة القرون الوسطي ، وكانت الشعوب الاوربية أنذاك بعيدة عن الحضارة الرفيعة ، حيث قامت تلك الشعوب علي أنقاض غزوات المتبربرين ، ووجدت أمامها حضارة الرومان قائمة ، فاقتبست منها ، كما كان نفوذ الكنيسة المسيحية ، وسلطانها الروحي والمادى قد بدأ يمارس أثره علي الحياة في أوربا •

ولكن هذا المزيج الذى قامت عليه حضارة أوربا آنذاك وانبثق منه الاقتصاد الاوربي ، كان يعتريه الاضطراب والتخريب بسبب غزوات البربر ، كما أن الاقتصاد الروماني ذاته كان بعيدا عن الاستقرار في غمار انهيار الامبراطورية الرومانية منذ القرن الخامس الميلادى •

---

(١٧) واعتادت قريش رحلتان تجاريتان : الي الشام صيفا والي اليمن شتاء •

(١٨) بل كان العرب يحتقرون الصناعة ويعيبون المحترف بحرفة ، من ذلك أن كان المعديون يعيبون أصل اليمن بدباغة الجلود ، وكان يقال : هم بين دابغ جلد وناسج برد •

(انظر : الخضرى ، محاضرات فيتاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ، جزء ١ ، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ١٩٦٩ م ، ص ١٦ ، ١٧) •

وكان أهم مايلاحظ علي الكيان الاقتصادى لاوربا خلال الفترة المذكورة بوجه عام (١٩) :

- أن النشاط الاقتصادى الغالب كان هو الزراعة التي تشكل المصدر الرئيسي للثروة •
- وكان نظام الضيعة المغلقة يمثل تكوين اجتماعي معين يجرى من خلاله النشاط الاقتصادى ، فيحكم علاقات وطرائق الانتاج ، فكان السيد أو النبيل هو الذى يملك الارض وما عليها من أدوات الانتاج ومن عليها من الفلاحين من أقنان وعبيد ، وكان الفلاحون من الاقنان الذين يعيشون حالة بين الرق والحرية ومن العبيد المملوكين للسيد ملكية تامة وكانت هذه العلاقة الواقعية بين السيد والاقنان تمثل تطورا للتنظيم الاجتماعي القائم علي الرق والعبودية نحو وضع أكثر تحررا للتابع وان ظل القن خاضعا لبعض مظاهر العبودية ، والاقنان يجبرون علي التزامات معينة تجاه الشريف وخاصة زراعة أرضه ، ثم تطور البعض من هذه الالتزامات الي التزامات مالية كدفع مقابل لاعفاء القن من السخرة أو مقابل للتمتع بوراثة الارض •
- ومن حيث طريقة الانتاج ومستوى فنونه ، كان الانتاج الزراعي يجرى في شكل وحدات صغيرة – حيث كان الجانب الاكبر من الارض يقسم الي قطاعات صغيرة تتجزأ بدورها الي شرائح – ويقوم الفلاح بزراعة عدد من الاشرطة المتفرقة مكانيا علي وجه كان يسبب ضياعا لجانب من الموارد من جهد وأرض •
- وكانت أدوات الانتاج بدائية مملوكة للشريف ، أما طرائق الانتاج فكانت متخلفة •

---

(١٩) حسين ، د• وجدى محمود ، مذكرات في التطور الاقتصادى ، لطلاب جامعة المنصورة عام ١٩٧٩ م ، ص ٣٧ – ٤٢ •
عفيفي ، د• أمين ، المرجع السابق ، ص ١٦ – ٢٥ •

- أما عن الحياة الاقتصادية في مدن أوربا خلال القرون الوسطي ، فكانت تتصف أيضا بالجمود والتأخر ، وكان النشاط فيها مابين صناعة وتجارة ، وتميزت الانشطة المذكورة بالتكتل الذى يقيد من حرية الافراد ، فنشأت طوائف الحرف ــ في الصناعة التي يلتزم أفرادها بتقاليد معينة ويتحدون لتنظيم مصالحهم والمحافظة علي المستوى الفني للحرفة ٠
- كذلك ضمت التجار اتحادات عامة تعمل علي توسيع مشروعاتهم وتمكن كبار التجار منخلال اتحاداتهم من السيطرة علي قطاع الصناعة الذى كانوا يمولونه بروءوس أموالهم الضخمة ، كما أدى الي ارتباك أرباب الصناعة بديونهم ، ومكن للتجار من التحكم في حياة المدينة ، كما ساءت أحوال الاجراء الكادحين من طبقة العمال في المصانع والنقل لانخفاض أجورهم وتدهور مستوى معيشتهم ٠

على أن نشاط التجارة هو الاخر قد اعتراه الركود ابان فترات الغزو علي أوربا من الشرق والشمال ، خلال قرون عديدة ، استمرت حتي القرن العاشر ، فلم يبدأ توسع التجارة من جديد سوى في القرن الحادى عشر (٢٠)

وكان في تلك الاحوال التي صاحبها سخط الطبقات العاملة ، ما زعزع النظام الاقطاعي ومهد لظهور المعالم الاقتصادية الجديدة للحياة الاوربية علي أيدى رجال الصناعة والتجارة والمال في القرن الخامس عشر ٠

---

(٢٠) وبعد أن انتعشت قطاعات الانتاج في أوربا زهاء قرون ثلاثة اعتبارا من القرن الحادى عشر ، عادت للانكماش منذ أواخر القرن الرابع عشر حيث تفشت المجاعات وزادت وطأة الضرائب وارتفاع الاسعار وانتشرت الاوبئة فتدهورت بذلك أحوال أوربا الاقتصادية في تلك الفترة (راجع : د٠أمين عفيفي ، المرجع السابق ، ص ٢١-٢٢) ٠

٢ ـ نهضة الاسلام الاقتصادية مقارنة بالنهضة الاقتصادية في أوربا :

حيث تنصرف معظم مراجع التاريخ الاقتصادى أساسا الي وصف وبيان وقائع التطور الاقتصادى لاوربا ، وحيث ترتبط وقائع التاريخ الاقتصادى لبلدان العالم علي وجه أو آخر بالتطور الاقتصادى لاوربا ، حتي أن الكثير من مسائلنا ومشاكلنا الاقتصادية المعاصرة لايمكن فهمها علي وجهها الصحيح دون ربطها بأحداث التاريخ الاوربـــي •

ونظرا لان التاريخ الاقتصادى لاوربا يعرض لنا جهود الشعوب الاوربية في سبيل بناء حضارتها الراهنة ، مما اعترضها من مشكلات اقتصادية يمكن الافادة منها كتجارب للتطور الاقتصادى •

وبالنظر لان حضارة الاسلام في القرن السابع الميلادى وما بعده قد ازدهرت في وقت لم تكن فيه حضارة أوربا المعاصرة قد ظهرت في حيز الوجود ، فان مقارنة الاثار الحضارية لوقائع الاقتصاد الاسلامي وانجازاته المادية والمعنوية ، بما جرى من ميلاد وتطور النهضة الاوربية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، لما يبرز السبق والتفوق الحضارى لواقع الاقتصاد الاسلامي منذ آونة التخلف التي عاشتها أوربا في القرون الوسطي علي ما أوضحنا •

وعندما نعرض في مرحلة لاحقة من البحث ـ بمشيئة الله للتحولات الكبيرة التي أضفتها الحضارة الاسلامية علي النشاط الاقتصادى بكل قطاعاته ـ وما انطوت عليه القيم الاخلاقية والثقافية للاسلام من أثر علي علاقات الانتاج ـ سنرى أن حضارة رفيعة قد انطلقت في العالم الاسلامي خلال فترة القرون الوسطي ، أسفرت عن نمو اقتصادى وتقدم عمراني ، بينما كانت البيوت في باريس ولندن لاتزال تبني بالحجر المنحوت بلا أمن ولا ادارة ولا حكام يكفلون العدل ، ولم تعرف الشوارع المجارى ولا المصابيح ، وانتشرت الغابات والمستنقعات على وجه كثرت معه الاوبئة والامراض (٢١) • أما الحياة الفكرية للمواطن الاوربي في ذلك العصر فقد سادتها

---

(٢١) لافيس ورامبو ، التاريخ العام •

الجهالة والاوهـــام (٢٢) •

وقد ذكر المؤرخون أن بداية اتصال الشرق بالغرب في القرن الحادى عشـر الميلادى بدخول النصارى حمي المسلمين المتمدينين من طريقي الحروب الصليبيـة والتجارة ، فهال النصارى الاوربيين ما شاهدوه في المشرق الاسلامي من معالـــم الحضارة ومظاهر الرقي •

أما أوربا الشرقية الشمالية فكانت تعمها الهمجية وكانت روسيا مسرحا لقبائل من الصقالية يتسلط عليها التتار ويسومونها العذاب (٢٣) •

أسباب النهضة الاقتصادية في أوربا :

كانت أهم معالم التطور الاقتصادى والسياسي والفكرى في أوربا منذ أواخـــر القرن الخامس عشر تتمثل في مرحلة التجهيز الاوربي خلال الفترة ١٤٥٠ — ١٧٥٠ م التي ظهرت فيها أدوات التخلص من بقايا النظام الاقطاعي ، ومن ذلك كفـاح الاوربيين في الكشف عن أسرار الطبيعة والبحث عن وسائل الافادة منها ، فتوصلوا الي مخترعات تحقق رفاهية الفرد وقوة الدولة ، كما تمكنوا من تجميع عناصر القوة الروحية والادبية باحترام الحياة البشرية وتعزيز سلطان الدولة وفرض سيطرتها علي الموارد الاقتصادية من أجل تنميتها •

---

(٢٢) ويصف سنيوبوس (تاريخ الحضارة) شارلمان حاكم فرنا وألمانيا وايطالياوأعظم ملوك أوربا في تلك الازمنة بأنه كان أقرب الى الامية منه الي نور العلم ، ولم تكن في فرنسا أية كتابات أدبية ، وكان الاشراف يجهلون الكتابـة ، غلاظ ، جفاة الاخلاق ، وكان تعاملهم مع أعدائهم بقسوة ووحشية •

(٢٣) وبقيت روسيا علي تلك الاحوال الي أن خلصها من قيود الجهل بطرس الاكبر •

وكان الصراع في تلك المرحلة ضد الاقطاع ونفوذ الكنيسة وسيطرة حكومة المدينة ، وهي القوى التي كانت تسيطر علي الموارد وتستغل نشاط الافراد وتحدد آفاقهم الفكرية والروحية ، فقامت الجامعات وظهر المصلحون الدينيون ، كما ظهر رأس المال مقترنا باحترام العمل ونمت فروع جديدة للصناعات .

ولكن عندما استكملت الدولة سلطتها تجاه العناصر السالفة الذكر ، بدأت في بسط نفوذها علي الافراد ، فقيدت من حريتهم في ممارسة النشاط الاقتصادى والمشاركة في الحكم ، ولم يتمكن المواطن الاوربي من نيل حريته الفردية الا في القرن التاسع عشر وما بعده ، حينما شاعت الحرية الاقتصادية والديمقراطية السياسية

وكان من عوامل ازدهار النشاط الاقتصادى في أوربا اعتبارا من ذلك الوقت ظروف وتيارات جديدة ، كان قد طرأ بعضها منذ أواخر القرون الوسطي ، أهمها (٢٤) :

- حركات النهضة والاصلاح الديني ، وثورة كلفن علي سلطان الكنيسة حيث نادى باحترام العمل وجمع الثروة .
- نهضة الفن والادب والعلم القائم علي الاستقراء والاستنباط .
- ظهور صناعات جديدة وبناء أساطيل قوية .
- الكشوف الجغرافية والتوسع الاستعمارى ، وكانت الروح الدينية (الصليبية) هي الغالبة علي حركات التوسع الاوربي ، وفتحت الحروب الصليبية أبواب التجارة مع الشرق ، كما بعثت الحياة في حوض البحر الابيض المتوسط ، وانتشر التوسع الاوربي فيما وراء البحار وتطور الي صراع بين الدول الاستعمارية علي مناطق النفوذ .

---

(٢٤) د. أمين عفيفي ، المرجع السابق ، ص ٢٣ – ٦٧ .

- قيام الوحدات القومية ، وزيادة السكان ٠
- اتساع الانتاج وتنوعه ، تقدم الزراعة مع نمو الرأسمالية (٢٥) ٠

ومهد كل ذلك للمرحلة الثانية من تطور أوربا الاقتصادى وهي مرحلة التحرر والثورة اعتبارا من ١٧٥٠ م حتي الان ، وهي المرحلة التي ملكت فيها زمام التفوق في العالم ، حيث امتد منها ذلك التفوق الي الولايات المتحدة الامريكية ٠

فاذا قارنا عوامل النهضة الاقتصادية لاوربا ـ مما تلاحق وتفاعل اعتبارا من القرن الخامس عشر الميلادى ـ بما انطلقت به حضارة الاسلام ونظامها الاقتصادى قبل ذلك بسبعة قرون علي الاقل ، لالفينا السبق الحضارى بعوامله المتضافرة للاسلام ومبادئه وظروف انتشاره وتوسعه الاقتصادى ، ليس فقط سبقا زمنيا ، بل سمو حضارى يرفع من قدر العمل الشريف والكسب الحلال من الانتاج ، ويسوى بين الغني والفقير والحاكم والمحكوم ويصحح مفاهيم الانسان نحو الكون والمجتمع بما لايقارن مع حركات الاصلاح الدينى ونورة كلفن في أوربا ٠

---

(٢٥) لم يبدأ تقدم الزراعة الا من خلال فترة تحول بدأت في القرن الثالث عشر الميلادى واستمرت ستة قرون ، وذلك بتأثير ظهور النظام الرأسمالي مع بداية استخدام النقود وقيام التبادل والتجارة ونمو الصناعة ، ومع انتشار استخدام المزارعين للنقود في آداء التزاماتهم مما مكن عبيد النظام الاقطاعي من التحول الي مستأجرين للارض مقابل ايجارات نقدية (راجع في ذلك : عجمية ، د٠ محمد عبدالعزيز ، التطور الاقتصادى في أوربا والوطن العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ١٨-٢٢) ٠

ثم نجد في انتشار الاسلام وتوسع فتوحاته شرقا وغربا لنشر الدين الجديد وخاتم الرسالات ، واعلاء كلمة الحق ، لالتعصب أو أطماع استعمارية أو نهب ثروات أو استرقاق شعوب .

ثم نجد في قوة الدولة الاسلامية ونفاذ سلطانها عبر أرجائها ما يجاوز نفوذ الوحدات القومية التي ظهرت في أوربا .

ثم نجد ذلك الانتعاش الاقتصادى الذى ساد قطاعات الانتاج المختلفة فــي ظل الدولة الاسلامية من تجارة منتشرة شرقا وغربا وزراعة متقدمة بأساليبها ونظــم ريها وحوافز زراعتها ، وصناعات ازدهرت مع التقدم الفني والتخصص واتســـاع الاسواق بنمو سكان الدولة علي ما سيرد بيانه في بحثنا .

المبحث الثالث

الاقتصاد الاسلامي ثورة اجتماعية اقتصادية مبكرة

"كي لاتكون دولة بين الاغنياء منكم ..." (الحشر ٧)

نتناول في هذا المبحث :

- القيم الاسلامية والمعالم الحضارية للاقتصاد الاسلامي .
- أدوات التحول الاجتماعي والثقافي :
  العدالة الاجتماعية واطلاق الفكر المبدع .
- الاقتصاد الاسلامي والتحول في علاقات الانتاج والقوى العاملة .

١ - القيم الاسلامية والمعالم الحضارية للاقتصاد الاسلامي :

كان لظهور الاسلام في أواخر القرن السادس الميلادى وما بعده آثاره العميقة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية سواء في شبه الجزيرة العربية أو سائر البلاد التي انتشرت فيها دعوة الاسلام ونظمه ، وحملت حضارة الاسلام بذلك رسالة للمجتمع الانساني بأسره تتغلغل في كل جوانب التقدم الحضارى للبشرية .

وقبل أن نعرض في ايجاز لابرز الملامح الحضارية للاقتصاد الاسلامي نشير الي الجوانب الرئيسية التي يتضمنها أى تقدم حضاري يحقق سعادة ورخاء وأمن البشر حيث تتمثل تلك الجوانب فيما يلي (٢٦) :

---

(٢٦) عبدالرحمن حسن الميداني ، أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ، طبعة ٢ ، دار العلم ، بيروت ١٩٨٠م ص ١٧ ، ١٨ .

* بلوغ ما يحقق السعادة الخالدة للفرد والمجتمع ، وذلك بادراك الانسان لذاته ولحقائق الكون ومصيره في الاونة الاخيرة حيث يتعلق الامر هنا بالمعتقدات والواجبات الدينية ، وقد تكفل الاسلام بهذا الجانب من خلال مانزل به الوحي علي رسول الاسلام محمد عليه السلام •

* تقدم المجتمع الانساني عن طريق شيوع الرخاء والامن والعدالة والحرية ، وما يكفله التعاون وشيوع الخير والنظام والتقاليد الاخلاقية ،وسبيل ذلك التلقي التعليمي اما عن طريق الوحي الذى وردت به الشرائع السماوية أو عن طريق الاستنباط بالبحث العلمي أو الاختبار والتجربة •

* اشباع الحاجات المادية والنفسية للفرد ، بما يحفظ كيان جسم الانسان ونموه وامتاعه حسيا ونفسيا ، ويستخدم لذلك العقل والبحث العلمي والممارسة التطبيقية في نشاط الانسان الاقتصادى •

فاذا تأملنا منهاج الحضارة الاسلامية فيما أتت به لتوفيه تلك الجوانب الرئسية للتقدم الحضارى ، نجد حضارة الاسلام تبدأ بالقمة فيتكفل الوحي المنزل بالجانب الاول لبلوغ السعادة الخالدة للفرد والمجتمع ، ثم تتدرج الي الجانب الاوسط فيما يخدم تقدم المجتمع الانساني من أسباب العدل والمساواة والحرية ••• الخ • أما الجانب الثالث والمتعلق باشباع الحاجات المادية والنفسية للفرد ، فقد تركة الاسلام للاجتهاد الانساني الذى يقوم علي التطوير والابتكار والتنافس بالاستجابة لدوافع وغرائز الانسان ولكن بشرط أن يكون ذلك في دائرة الخير واطار الالتزام بالقيم الاخلاقية والايمانية للاسلام واذ تتضمن حضارة الاسلام هذه الجوانب جميعا فهي تفضل في شموليتها سائر الحضارات الاخرى التي قد تراعي بعض الجوانب مع اهمال الجوانب الاخرى •

وفي ذلك يقول المفكر الاسلامي محمد ضناوى (٢٧) : " الحضارة الاسلامية هي تفاعل الانشطة الانسانية للجماعة الاسلامية الموحدة لخلافة الله في الارض ، عبر الزمن ، وضمن المفاهيم الاسلامية عن الحياة والاكوان " •

وتتمثل الملامح الحضارية التى أضفاها الاسلام علي الحياة الاقتصادية ، فكانت بمثابة ثورة فجرت العمل الاقتصادى المنتج في اطار نظام اقتصادى ينطلق من القيم الاسلامية ، فيما يلي :

أولا : ماتضمنه الاسلام من حضارة ذات معطيات ثابتة حول محور واضح يتحدد وفقا له اطار الغايات والوسائل في حياة الانسان ، حيث الغاية هي تحقيق الانسان لخلافة الله في الارض والوسائل هي مقدرات الله التي سخرها له الله وبذلك يكون نشاط اشباع الحاجات الانسانية من مأكل وملبس وجنس ••• الخ • ماهي الا وسائل ولايجوز أن تنقلب الي غايات (٢٨) • وبرغم هذه المعطيات المحورية الثابتة فقد ترك الاسلام حرية الحركة والمرونة اللازمة لمواجهة مقتضيات التطور واختلاف ظروف الزمان والمكان فيما يتعلق باستخدامه للوسائل ، ويتفرع عن ذلك الاثر والنتيجة التالية •

---

(٢٧) الذى يعرف الحضارة بأنها : " تفاعل الانشطة الانسانية لجماعة ما ، في مكان معين ، وفي زمن محدد أو أزمان متعاقبة ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة (ضناوى ، محمد على ، الحضارة الاسلامية بين التحدى والتعطيل ، الندوة الرابعة للشباب الاسلامي ، الاسلام والحضارة ، الرياض ، ١٩٧٩ م ، مجلد ١ ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠) •

(٢٨) ضناوى ، المرجع أعلاه ص ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ •

ثانيا : فصل قيمة الاقتصاد عن قيمة الانسان ووضع الاقتصاد في خدمة الانسان (٢٩)
فالاسلام قد عامل الاقتصاد علي أنه عامل رئيسي في حياة الانسان ، ولكنه لايفضل الانسانية في قيمها العليا فلا يطغي علي الروابط بين الانسان والانسان فبرغم الحقيقة التى يطرحها القرآن الكريم من قيمة المال لدى الانسان :
" المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (الكهف٤٦) فالاية تردف ذلك ببيان أولوية القيم والعمل الصالح : " والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا " والانسان تقدر قيمته بمدى درجته في المستوى الانساني وليس بمدى ملكيته في الاقتصاد (٣٠) ، فالجزاء الاوفي في اليوم الاخر هو للموءمن الملتزم بالقيم الانسانية •

ولايرتبط مصير وتطور حياة الانسان - وفقا للنظام الاسلامي - بتطور الظروف الاقتصادية وقوى الانتاج وعلاقاته - كما يشير المذهب المادى الي حتمية التطور التاريخي - بل ان الاقتصاد والمال مسخرين من فضل الله لخدمة الانسان :
" وما ذرأ لكم في الارض مختلفا ألوانه " " وسخر لكم مافي السماوات ومافى الارض جميعا ••• " (الجاثية ١٣) •

ثالثا : تعزيز قيمة الفرد وتكريمه مع مساءلته لصالح الدين والمجتمع ، وهنا نجد الفارق الحضارى الشاسع بين الفردية في مذاهب الفكر الاوربي ، والفردية التي يكرم بها الاسلام الفرد فيما يكلفه له من عدل ومساواة وحرية وشورى ، تلك المبادىء التي تركت أعمق الاثر علي الحياة الاقتصادية للفرد المسلم :

---

(٢٩) البهي ، د•محمد ، الاسلام والاقتصاد ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨١ص١٣، ٢٦
(٣٠) فالثروة والملكية قد تكون لكافر لايلتزم القيم الاخلاقية للاسلام من عدل واحسان ورحمة وتعاون ، وعندئذ لايتقدم بثرائه وماله علي الموءمن الملتزم بالقيم : " انظر كيف فضلنا بعضهم علي بعض ، وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا " (الاسراء ١٨-٢١) •

فمبدأ العدل في حضارة الاسلام لايقتصر علي كونه شعارا فحسب كالذى رفعته الكثير من النظم والحضارات ، بينما لم تخضع له الا الطبقات المغلوبة ، بل وجد العدل طريقه فعلا في ظل الدولة الاسلامية ليسود بين الشريف والضعيف وبين الحاكم والمحكوم ، وكان له بذلك أثره علي العاملين والمنتجين من احساسهم الامن والعدل كحافز علي التفاني في نشاطهم الانتاجي .

كذلك كفل الاسلام المساواة بين الافراد في الحقوق والواجبات والكرامة وكافة الفرص الاجتماعية (٣١) بغض النظر عن اختلاف أجناسهم ، حيث يقول الرسول (ص) : " الناس سواسية كأسنان المشط ليس لعربي علي عجمي ولا لابيض علي أسود فضل الا بالتقوى " .

وبفضل ذلك شاركت كل الاجناس والالوان — في ظل الدولة الاسلامية — في العمل والانتاج وظهر علماء من مختلف الجنسيات يشاركون في صنع الحضارة الاسلامية وبذلك كان الاسلام "بمثابة الخطوة العملية العظمي نحو المساواة الصحيحة بين البشر حيث أصبح المسلمون الذين استمسكوا بعروة الدين — ونسوا عصبياتهم — سواء وصار أكرمهم عند الله أتقاهم " (٣٢) .

كذلك فرعاية الاسلام لحرية الانسان في ذاته وفي عقيدته وبالتالي في نشاطه الاقتصادى — حيث لاعبودية الا لله عز وجل — كفل للعمل المنتج الخلاق الحافز القوى ، ونظم الاسلام حدود الحرية في الفاصل بين الخير والشر وبين الحلال والحرام أى بين النافع والضار .

---

(٣١) كما سوى الاسلام بين المرأة والرجل بعد أن كانت البنت تتعرض للوأد عند ميلادها كما كانت بعض النظم تخضع المرأة للتوريث كالمتاع ، فكفل لها الاسلام حرية الاختيار والتعلم والمشاركة في العمل والتصرف في مالها في حين لاتزال بعض نظم الغرب المعاصرة تحرمها من ذلك .

(٣٢) فروخ ، عمر ، تاريخ الفكر العربي الي أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٢ م ، ص ١٧٥ .

أما الشورى في الاسلام ، فقد منعت الاستبداد وحكم الفرد ودفعت بحوافز الافراد للاجادة والمشاركة المخلصة والفعالة في ادارة شئون الحكم والاقتصاد وتحقيق مصلحة المجتمع : " وأمرهم شورى بينهم " (حديث شريف) ٠

ولقد استقطبت حضارة الاسلام نوازع الفردية النابعة من الطبيعة البشريةولكن في غير اغفال لمسوءولية الفرد الاجتماعية ومراعاة الصالح العام وحق الجماعة(٣٣) وفي هذا تتميز حضارة الاسلام عن كل ماناد ت به المذاهب الفردية التي تغنت بحرية الفرد كما سنرى بعد قليل ٠

وأول ماتتسق فيه حضارة الاسلام مع فطرة الانسان ، اقرار الشريعة الاسلامية لمبدأ الملكية الفردية وحق الفرد في توريث ذويه والحرص علي الاستمتاع بنعم الله في غير معصية أو اسراف : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (الكهف ٤٦) ، و " كلوا واشربوا ولا تسرفوا " (الاعراف ٣١) ٠

علي أن حضارة الاسلام مع اقرارها بنزعات النفس البشرية وحاجات الفرد وطبيعته الفطرية ، تتعامل مع الفرد من واقع قدراته كمخلوق عاقل ومكلف بموجب ادراكه للاشياء من أول يوم خلق ، وتوضح له طريق الخير مميزا عن طريق الشر : " انا عرضنا الامانة علي السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان " (الاحزاب ٧٢) ٠

---

(٣٣) راجع لكاتب هذا المقال : " السبق الحضاري للفكر الاقتصادى الاسلامي " ، بحث مقدم الي المؤتمر العلمي السنوى الثالث : المنهج الاقتصادى في الاسلام بين الفكر والتطبيق ، جامعة المنصورة ونقابة التجاريين ، القاهرة ، ١٢/٩ ابريل ١٩٨٣م ، ص ٥ ، ٦ ٠

ومن واقع الارادة العاقلة في الانسان ، تضمنت حضارة الاسلام التكليف المسؤول في السلوك الاقتصادى وما سواه من أنشطة الانسان : " ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا " (الاسراء ٣٧) وتتضمن واقعية الاسلام في التعامل مع طبيعة الفرد توجيها للجانب الاخلاقي في تقويم سلوك الفرد وكفالة شرف المقصدوالغاية من نشاطه الاقتصادى ، وهكذا كفلت حضارة الاسلام تكريس دور الانسان المبدع في الحياة الاقتصادية ، وذلك من خلال استخلافه في الارض لاعمارها وشحذ روحه المعنوية النابعة من الايمان لمواجهة مصاعب الحياة ومسؤولياتها : " ولاتمشي في الارض مرحا " (الاسراء ٣٧) .

وقد كرس الاسلام الطاقة البشرية للعمل المنتج النافع ، حينما قرر المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والثواب : " اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثي بعضكم من بعض " (آل عمران ١٩٥) وجعل الاسلام سبيل حصول الفرد علي المال ، هو جهده من العمل الشريف المشروع : " فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه." (الملك ١٥) .

كما جعل حدود الاستهلاك المباح للفرد ، أن يكون المال أو الشيء من مصدر حلال : " كلوا مما في الارض حلالا ..." (البقرة ١٦٨) .

فاذا انتقلنا لمذهب الفردية الذى ساد مجتمعات الغرب ، نجد أن تمجيد الفرد ، قد ارتبط في أوربا بظروف معينة ، منها نمو الرأسمالية والبروتستانتية مع بدايات الثورة الصناعية ومع انتشار مذاهب عدم تدخل الدولة ، ولما كانت وحدات الانتاج والتوزيع في المراحل الاولي للرأسمالية في أيدى الافراد وحدهم ، فان ايديولوجية النظام الاجتماعي الجديد أكدت بقوة علي دور المبادرة الفردية في النظام الاجتماعي ، بيد أن العملية بكاملها ـ كما هو واضح ـ عملية اجتماعية تمثل مرحلة معينة في التطور التاريخي ، فلم تمثل الفردية في أوربا ثورة ضد مجتمع أو

تحرر أفراد من قيود اجتماعية كما فعل الاسلام (٣٤) •

رابعا : تحريم الاسلام لادوات طغيان الانسان وظلمه لغيره (٣٥) • ومن ذلك تحريم الربا : " وأحل الله البيع وحرم الربا ••• " (البقرة ٢٧٥) ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الاحتكار والغصب والسرقة : " يا أيها الذين آمنوا ، لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل •••" (النساء ٢٩) وتحريم رشوة الحاكم لاستغلال الغير بدون وجه حق : " ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الي الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون " (البقرة ١٨٨) ، وتحريم استغلال الضعيف : " وأتوا اليتامي أموالهم ، ولاتأكلوا أموالهم الي أموالكم " (النساء ٢) ، وتحريم تطفيف الكيل والميزان في التجارة : " ويل للمطففين •••" (المطففين ١) •

* * *

هكذا ضمت حضارة الاسلام من القيم الموجهة للنشاط الاقتصادى ماأضفي علي الاقتصاد الاسلامي سمات وملامح الثورة علي الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السابقة علي ظهور الاسلام ــ سواء منها ماكان سائدا في الجزيرة العربية أو سائر بلاد العالم

---

(٣٤) بل ان الدلائل تشير الي أن المذهب الفردى الذى ساد العالم الغربي في المرحلة التاريخية المشار اليها قد بلغ نهايته مع ظهور الاحلال التدريجي للاشكال الجماعية المتحكمة في الانتاج والتنظيم الاقتصادى محل اشكال التحكم الفردى (راجع : ادوارد كار ، ماهو التاريخ ؟ مرجع سابق ، ص ٣٥،٣٦

(٣٥) البهي د• محمد "الاسلام والاقتصاد " المرجع السابق ص ١٨ ــ ٢٥ •

الاخرى ، مما سنعرض له في المبحث التالي بمشيئة الله ، لنؤكد أن ماسوى الاسلام من حضارات أخرى لم تكن علي ذلك المستوى من الشمولية للجوانب الرئيسية اللازمة للتقدم الحضارى ، حيث انكبت الحضارات الاخرى الحديثة التي عرفها المجتمع البشرى علي الجانب المادى في مجال ابتكار الوسائل المادية التي تخدم الجسد الفاني وتحقق لذاته ومتعه وراحته ، وما يقرب المسافات ويختصر الزمن ، في حين غفلت الحضارات المشار اليها عن الجوانب الفكرية والعقائدية والاخلاقية مما ينير طريق الانسان في تعرفه علي ذاته وموقعه من الكون والحياة والخالق وعلي طريقه للعلاقات الاجتماعية الخيرة مع غيره من البشر (٣٦) ٠

---

(٣٦) راجع : الميداني ، عبدالرحمن "أسس الحضارة الاسلامية" المرجع السابق ، ص ١٨ ٠

٢ـ أدوات التحول الاجتماعي والثقافي : العدالة الاجتماعية واطلاق الفكر المبدع :

ان نهج الاسلام في الاقتصاد جزء من حضارته ، وحضارة الاسلام فكر شامل متكامل بدأ ببيان خطوط واضحة لموقع الفرد من خالقه والكون الذى يعيش فيه وحقوقه وواجباته في دائرة الاسرة والمجتمع وانتقل الي توضيح أسس الحكم العادل الذى يقوم علي الشورى ويرعي مصالح المسلمين ، كما اشتمل ذلك علي ابراز دور العلم في حياة الفرد والامة ، وانعكس كل ذلك علي نظم ومؤسسات الدولة الاسلامية التي تعتبر تطبيقا لنهج حضارة الاسلام في الاقتصاد ، كبيت المال والدواوين التي أنشئت لادارة أموال المسلمين وتنظيم مصالحهم (٣٧) .

ويهمنا من بيان هذا النهج الشامل ووسائل تنظيمه في الاسلام ، ما عكسه من آثار دافعة حافزة لنشاط اقتصادى يتناسق مع قيم الاسلام ومبادئه .

والنظام الاجتماعي في الاسلام جزء من الدين ، وقد اشتمل الاسلام علي تنظيم صلات البشر فيما بينهم وبدأ بالحفاظ علي كرامة الانسان وكفالة حقوقه في الحرية والمساواة (٣٨) ، وجعل الزكاة حقا للمحتاجين في أموال الاغنياء .

وجعل الاسلام لكل فرد شخصيته المتميزة في التفكير وتحمل المسؤولية بعد أن كانت آراء الفرد تذوب في فكر القبيلة واتجاهاتها : " لتجزى كل نفس بما كسبت ... " (غافر ١٧) .

---

(٣٧) راجع : شلبي ، د. أحمد ، الفكر الاسلامي ، منابعه وآثاره ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٧٨م ، ص ٧١ .

(٣٨) كما ضيق الاسلام من حالات الرق التي كانت شائعة فقصرها علي أضيق الحدود تمهيدا لتصفيتها ، كذلك قضي علي النظام الاقطاعي الذى كان سائدا في اليمن بما كان يتضمنه من ظلم وعبودية لرقيق الارض . (شلبي ، د. أحمد النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور ، أثر الفكر الاسلامي فيها ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٦م ، ص ١١٢ــ١١٤) .

كما وسع الاسلام من رابطة ولاء الانسان لمجتمعه فلم تعد تقتصر علي صلة الدم فحسب بل قويت رابطة الجوار ورابطة العقيدة والدين فضلا عن رابطة الاخاء الانساني عامة (٣٩) ، ولذلك أثره بطبيعة الحال علي نشاط الانسان الاقتصادى في نطاق حقوق الله وحقوق غيره من أفراد المجتمع •

* * *

وفي مقدمة السمات الحضارية لشرائع الاسلام الاجتماعية التي أضفت أثرها الطيب علي النشاط الاقتصادى ، نظام الزكاة كفريضة علي أموال الاغنياء لصالح الفقراء ، ولا محل لتعداد منافع الزكاة الاقتصادية من حيث أثرها علي تقريب الفوارق بين الدخول والثروات وأثرها الانعاشي علي الاقتصاد من زيادة الانفاق ـ انفاق من يتلقونها ـ علي الاستهلاك والاستثمار ، ثم أثرها الاجتماعي في مكافحة الفقر والحاجة والبطالة ••• الخ •

كذلك كان من أحكام الشريعة الاسلامية التي أشاعت الاستقرار الاقتصادى واستقامة المعاملات قواعد القصاص والحدود التي كفلت الامن والعدالة ، وقواعد تنظيم المعاملات فيما أمر به كتاب الله من الوفاء بالعقود والالتزامات وما نهي عنه من أكل أموال الناس بالباطل وعن الربا وما نظمت به أشكال اثبات الديون والحقوق من اثبات الدين بالكتابة وشهادة الشهود (٤٠) •

---

(٣٩) وسع حكام المسلمين في تلك الروابط بكثير من المرونة ، ومن أمثلة ذلك ما قرره عمر من فرض صدقة من بيت المال لفقير من أهل الكتاب ، حيث قال عمر رضي الله عنه : " انما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب " •

(٤٠) محمد الخضرى ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ ، ١٣٨ •

وكان لقيام الدولة الاسلامية الموحدة بعد ظهور الاسلام أثره في نماء التجارة واستقرار الاحوال الاقتصادية ، فقد أخضع الاسلام قبائل العرب المتنافرة لسلطان واحد بعد أن كانت القبيلة والفردية مصدر فخر ، فتألفت من القبائل المتفرقة أمة واحدة استمرت وازدهرت بعد وفاة الرسول (ص) .

ووصف البعض حكم الخلفاء الراشدين بالحكومة الشعبية التى تستند الى شريعة الهية يديرها ولي أمر منتخب مقيد في سلطته ، حيث يرتبط النظام الاجتماعي بالقرآن ويتكفل ولي الامر فقط بوضع نظم الامن وترتيب وظائف الدولة وشئون الحرب وما شابهها (٤١) .

وتميز حكم الخلفاء الراشدين بالمثالية والعدالة وزهد الحكام في الثراء وحرصهم علي مساواة المحكومين في تطبيق الشريعة لافرق بين غني وفقير ، كما تميز العهد المذكور بالتزام الحاكم ومسوءوليته عن أفعاله (٤٢) .

ويقرر الموءرخون أن النظم السياسية والاقتصادية في الاسلام ، كانت في تلك الاونة رائدة علي الصعيد العالمي ، فأول مرة في تاريخ البشرية يعرف الناس العدالة الاجتماعية في الاقتصاد ، وقد اقتبس الغرب هذه الاتجاهات من الاسلام حيث أعاد مفهوم العدالة الاجتماعية تحت اسم الاشتراكية ، وما الاشتراكية الا فهما للاتجاه

---

(٤١) سيديو ، ل . أ ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، عيسي الحلبي ، ط ٢ ، ١٩٦٩م ، ص ١٠٧ .

(٤٢) ويذكر سيديو أمثلة علي ذلك اكراه عثمان علي تقديم حساب عن أموال الدولة ، ووقوف علي للدفاع عن براءته تجاه ادعاء نصراني عليه بالاستيلاء علي سلاحه (سيديو ، المرجع أعلاه ، ص ١٠٨ .

الاقتصادى في الاسلام (٤٣) •

وقد تضمن الاسلام في صدد تحقيق العدالة الاجتماعية ثورة حضارية في مفاهيم الاقتصاد، وبينما كانت الثورات الاقتصادية قبل الاسلام تأتي من جانب الجماهير المطحونة ضد الاقطاع أو الرأسمالية الطاغية ـ حيث كانت ثورات من الفقراء علي الاغنياء والحكومات المتسلطة ، ظهر مفهوم العدالة الاجتماعية في الاسلام ليتكفل به الحاكم فتكون ثورة من الحاكم العادل لصالح الشعب ، ومن أبرز الامثلة علي ذلك الحرب التي شنها أبوبكر رضي الله عنه علي مانعي الزكاة من الاغنياء لصالح الفقراء ، حيث أعلن : " والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه " (٤٤) •

وقد استند توفير العدالة الاجتماعية في دولة الاسلام الاولي أولا علي وجود الحاكم العادل الساهر ، وثانيا علي مبادئ وأركان الاقتصاد الاسلامي •

فتكفل الحاكم العادل برعاية مصالح الرعية وكفالة حق الفقير والمحتاج في ضرورات الحياة من مأكل وملبس ومسكن ، ويروى في ذلك عن الخليفة عمر بن الخطاب ما ذكره مولاه مزاحم من أنه رأى عمر مغتما عقب توليه الخلافة ، فسأله مزاحم عن السبب ، فأجاب عمر : " لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الامة الا وأنا ملزم أن أوصل اليه حقه ، غير كاتب الي فيه ولاطالبه مني " (٤٥) •

---

(٤٣) شلبي ، د• أحمد ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٩م ، ص ١٧ ويوضح الكاتب أن العدالة الاجتماعية في الاسلام تعد هدفا ووسيلة ، فهي هدف لتحقيق مجتمع سليم لايستبد به الاغنياء ولاتتفاوت فيه الثروات والدخول ، وهي وسيلة لتوفير جو التعاون والتعاطف بين أبناء المجتمع الواحد (ص ١٨٦) •

(٤٤) د• شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ص ١٨٧ •

(٤٥) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣١ •

وكذا ماروى عن عمر بن عبدالعزيز الذى دخلت عليه زوجته عقب توليه الخلافة فوجدته يبكي ، فقالت : " ألشيء حدث ؟ " قال : " لقد توليت أمر أمه محمد ففكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، والمقهور المظلوم ، والغريب الاسير ، والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربي سائلي عنهم جميعا فخشيت ألا تثبت لي حجة ، فبكيت " (٤٦) •

أما مبادىء النظام الاقتصادى الاسلامي ، فقد تضمنت في كفالة حق الفقراء بأموال الاغنياء : الزكاة كحق ثابت محدد ودائم يمثل الحد الادني كفريضة علي القادرين ، والي جانب ذلك حق غير محدد وغير ثابت كان الحاكم يفرضه في أحوال الضرورة والظروف الاستثنائية التي يمر بها المجتمع ويتفاوت مقداره أو نسبته بحسب ظروف الحاجة اليه (٤٧) •

وهكذا حمل رسول الاسلام ومن بعده الخلفاءالراشدين لواء ثورة اجتماعية ظهرت في مجتمع جاهلي تتنازعه العصبية الجماعية لعلاقة الدم والقرابة ونزعة الفردية القائمة علي التضامن فقط من أجل المصلحة التجارية ـ بعد أن أصبحت مكة مركزا هاما للتجارة تحكمها تقاليد رأسمالية تجارية •

---

(٤٦) ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ١٣٩ •

(٤٧) وذلك عندما لاتفي أموال الزكاة بحاجة أفراد المجتمع في أحوال الضرورة كانقاذ الناس من حلول وباء أو مجاعة أو نفاذ الموارد المالية اللازمة لتمويل رواتب الجند •••• الخ •

(د • أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣) •

وانطلقت مبادئ الحكم لدى الخلفاء الراشدين من تلك الاسس الجديدة للعدل والمساواة ، تصون أموال المسلمين وترعي مصالحهم فكان الخليفة شديد الحرص علي هذه الاموال يصونها من نفسه ومن عماله ، وكان الخليفة عمر ينبه المسلمين الي حقهم في عمال (ولاة) عدول رحماء أتقياء ، وكان دائم التشديد علي ولاته في انصاف الرعية والرفق بالذميين ، ولايولي عاملا الا كتب ماله قبل أن يذهب الي مصره فاذا عاد معزولا حاسبه (٤٨) .

وكان مصدر حرص الخلفاء الراشدين علي تحقيق العدالة الاجتماعية هو احساس الحاكم المسلم أنذاك بمسؤليته عن رعاية الناس كافة وفي سائر أمورهم ، حتي أنه روى عن عمر رضي الله عنه قوله : " لو أن شاة ضاعت علي نهر الفرات لظننت أن الله سيسأل عمر عنها " (٤٩) ، كما كانت عدالة الاسلام تشمل حتي غير المسلمين من أهل الذمة (٥٠) .

وقد تميز النظام الاقتصادى في دولة الاسلام الاولي بالمرونة والتطور ، ومن أمثلة المرونة ما قام به عمر بن الخطاب من الغاء نفقة " المؤلفة قلوبهم " التي كانت مقررة في عهد الرسول (ص) من بيت المال ، حيث قال عمر : " هذا شيء كنا نفعله يوم كان الاسلام لايزال ضعيف الانتشار ضعيف الدفاع عن نفسه ، أما الان فقد أغني الله عنهم بقوة الاسلام ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (٥١)

---

(٤٨) حسين ، د. طه ، الشيخان ص ٢٣٤ ، ٧ .
(٤٩) فروخ ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
(٥٠) شاهد عمر ذات يوم رجلا مسنا يستعطي فسأل عنه ، فقيل له : هذا يا أمير المؤمنين يهودى " ، فقال لهم : " أيجوز لنا أن نأخذ منه في شبابه جزية ثم نتركه في شيخوخته يستعطي حتي يعيش ، أعطوه من بيت المال مايكفيه"

وقد تطورت نظم الادارة تطورا كبيرا في الدولة الاسلامية منذ عهد الامويين وذلك مع تشعب الاعمال والمسوءوليات في الدولة الاسلامية ، فاتخذ الامويون في عهد معاوية المساعدين والوزراء ، كما أنشئت الدواوين للاشراف علي الاعمال المختلفة (٥٢) •

كذلك كان للجانب الثقافي والتعليمي في حضارة الاسلام آثاره العميقة علي الحياة الاقتصادية في ظل الدولة الاسلامية ، فكان منطلق الدعوة للعلم الصحيح بنزول القرآن الكريم ، " اقرأ باسم ربك الذى خلق ••• اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ••• (سورة العلق ١ ــ ٥) •

وحض القرآن الناس علي العلم والتعلم في مواقع كثيرة : " لايات لقوم يتفكرون •• " ــ " ••• هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون " ــ " رب زدني علما " (طه ٢٠) كما حض رسول الله (ص) علي الاجتهاد في تحصيل العلم : " طلب العلم فريضة علي كل مسلم " (حديث شريف) •

وقد اضطلعت الحضارة الاسلامية بدور كبير في نشر العلوم والمعارف فكانت المساجد الكبرى الجامعة تحتوى علي مكتبات كبيرة ،وكان الخلفاء والحكام المسلمين يتفاخرون ويتبارون في جمع الكتب ، وتحول خلفاء بني العباس من الوقوف عند المجد الحربي نحو اشاعة الحضارة والسلم فنشروا الثقافة والعلوم والفنون والاداب التي تفوق فيها العرب آنذاك علي الروم (٥٣) ، ومن أمثلة الخزائن الكبرى للكتب

---

(٥٢) فكان علي رأس الدواوين ، ديوان الرسائل ويشبة أمانة رئاسة الوزراء الان وديوان الجند كسجل للجيش ، وديوان الناس وأعطياتهم وهو مأخوذ به من عهد عمر ، وديوان الخراج لشوءون الضرائب التي تحصل علي الارض•

(٥٣) سيديو ، المرجع السابق ، ص ١٩٢ •

في عهد العباسيين " بيت الحكمة " في بغداد خاصة في عهد المأمون ، وفي عهد الفاطميين مكتبة " العزيز" (٥٤) التي كانت تضم أكثر من مليوني كتاب •

هذا بينما كانت مكتبات أوربا الكبرى في العصور الوسطي ، تضم كميات متواضعة من الكتب (٥٥) •

كذلك اتسعت الحركة العلمية بالتأليف والتدوين والبحث في مختلف فروع العلوم والمعارف في مجالات الفقه والتاريخ والقانون وعلم الاجتماع والجغرافية والفلك والطب والرياضة والطبيعة والكيمياء • وكذا في الافكار الفلسفية من خلال المدرسة العقلية (المعتزلة) والمدرسة النقلية (الاشاعرة) ومدارس الصوفية ونظريات الفلاسفة الغزالي والفارسي وابن سينا وابن الهيثم وابن رشد (٥٦) •

وهكذا سار العرب الي منابع فلسفة اليونان العظيمة ، فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبوابا جديدة لدراسة الطبيعة ، ويصف سيديو (٥٧) دور العرب المسلمين في هذا المجال بأنهم هم الذين حملوا وحدهم لواء الحضارة في القرون الوسطي ، وكان من بواعث غزوهم لسورية وفلسطين ومصر حبهم لتحصيل العلم وحرصهم علي تعجيل رقيه ، كما كان من أهدافهم في ذلك بعث الروابط التجارية القديمةالتي كانت تربط شواطيء جزيرة العرب بالاقطار المجاورة ذات الحضارة •

---

(٥٥) مثال ذلك مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانذ في القرن التاسع الميلادى ومكتبة دير البندكتيين سنة ١٠٣٢ م حيث احتوت الاولي علي ٣٥٦ كتاب والثانية علي مائة (متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبدالهادى ريدة ، القاهرة ، ط٤ ،١٩٦٧م جـ١ ، ص٣٢٢ومابعدها

(٥٦) Sharif, M. M., Muslim Thought, Its Origin and Achievements, London, 1951.
ترجمة الدكتور أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م •

(٥٧) سيديو ، المرجع السابق ، ص ٣٣١ — ٣٣٤ •

وكان أبو جعفر المنصورى في مقدمة الخلفاء الذين حثوا علي النهوض بالحركة العلمية ، فحرص هو ومن جاء بعده من الخلفاء علي رعاية العلم والعلماء في زمن أهملت فيه أوربا العلوم والاداب بصفة عامة ، فأمر هوءلاء الخلفاء بترجمة أهم الكتب من اليونانية فشاعت دراسة كتب أرسطو وجالينوس وأرشميدس التي عرفها العالم الغربي من التراجم العربية قبل التوصل الي أصولها اليونانية •

ولمع الكثير من المسلمين في الرياضة مثل الحجاج بن مطر ، وفي الفلك مثل محمد النهاوندى ، كما برز في الجغرافيا الاقتصادية المقدسي في منتصف القرن التاسع الميلادى الذى ألف في هذا المجال علي أثر رحلاته الطويلة التي استغرقت زهاء عشرين عاما ، كما أعد علماء المسلمين من الخرائط الجغرافية ما يساعد علي تسهيل الاتصال والتبادل بين الاقطار المختلفة ، ومن هوءلاء الاصطخرى في القرن العاشر والبيروني في القرن الحادى عشر والادريسي في القرن الثاني عشر (٥٨) •

ساهم كل ذلك في تنشيط حركة التجارة في ظل الدولة الاسلامية ، كما تضمنت النهضة العلمية للمسلمين التوصل الي بعض الاختراعات الصناعية والاكتشافات التي أقرت الموءلفات الغربية بفضل المسلمين في التعرف عليها ، كطريقة انتاج الجلد الصناعي والبارود وابرة السفينة وورق الكتابة ومصنوعات المعادن ، وصناعة الزجاج من الحجارة •••• الخ (٥٩) •

٣ـ التحول الاجتماعي في علاقات الانتاج وفي القوى المنتجة :

يشكل التاريخ الاجتماعي للاسلام جانبا هاما من مظاهر الطفرة الكبيرة التي حققها الاقتصاد الاسلامي علي الاخص خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين

---

(٥٨) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، Sharif •
(٥٩) الميداني ، أسس الحضارة الاسلامية ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ـ ١٥٨ •

(١٠ ، ١١ م) من ظهور معالم جديدة للنشاط الاقتصادى تستمد جذورها من الاسلام وقيمه وتولدها عوامل التطور التي ظهرت مع المشكلات الطارئة للتنظيم الاقتصادى التي نجمت عن اتساع رقعة الدولة بفتوحات المسلمين وما أصبح يضمة المجتمع الجديد المركب من جنسبات مختلفة تشارك جميعها في البناء الاقتصادى الجديد . ولم يبدأ الاهتمام بفرع التاريخ الاجتماعي للاسلام الا مع مطلع القرن العشرين (٦٠)

وكان من أبرز التحولات التي تضمنها نظام الاسلام الاقتصادى والاجتماعي ، القضاء علي نظام الشيوعية البدائية التي سادت المجتمع القبلي في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ، والتي كانت تجعل الثروة التي تحوزها القبيلة من حق جميع أفرادها علي وجه الشيوع ودون تمييز بينهم بحسب جهد وكفاءة كل منهم .

كما تضمنت التحولات الاجتماعية الجديدة القضاء علي النظام الاقطاعي الذى كان سائدا في اليمن بما انطوى عليه من عبودية واستغلال (٦١) .

كما أدى اتساع الفتوحات الاسلامية الي تطلعات جديدة ظهرت لدى أشراف القبائل والقواد العسكريين من حرصهم علي تملك الاراضي بمساحات واسعة ، والاتجاه للاقامة علي أراضيهم وتفضيلها علي الاقامة في المدينة ، حيث تضمنت تلك الحركة تحولا من حالة المجتمع القبلي العسكرى الي الاستيطان الزراعي في الريف ، مما يمثل نزعة مدنية ، ومما وصفه البعض باتجاه الي ارستقراطية حضرية مالكة (٦٢) .

---

(٦٠) اهتم بهذا الفرع من دراسة التاريخ في أوائل القرن الحالي جورجي زيدان وتبعه في الثلاثينات أحمد أمين (في مؤلفه فجر الاسلام) ثم برز فيه بصفة خاصة **Prof. J. Kramers** من ليون في المؤتمر الدولي للمستشرقين في استانبول سنة ١٩٥١ م .

(٦١) د. شلبي النظم الاقتصادية في العالم .. ، المرجع السابق ص ١١٢ .

(٦٢) د. الدورى ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، المرجع السابق ص ٨٩ .

علي أن أبرز مظاهر التحول الاجتماعي التي انعكست علي الاحوال الاقتصادية في عهد ازدهار الاقتصاد الاسلامي قد تمثلت في تنظيم علاقات الانتاج علي وجه ينتفي فيه استغلال طبقة لاخرى بما يتضمنه ذلك أحيانا من اخضاع بعض وسائل الانتاج للملكية وتصفية الاقطاع ، كما تمثلت تلك المظاهر في ظهور طبقة متوسطة في المجتمع الاسلامي تمثل الفئات المنتجة وتضطلع بدور دافع رئيسي لحركة النشاط الاقتصادى •

أولا : بروز دور الفئات المنتجة كطبقة متوسطة :

تكونت هذه الطبقة في البداية من التجار والجنود الصعاليك الذين بدأوا يحتلون مكانة اجتماعية مرموقة ودور اقتصادى ملحوظ اعتبارا من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ويطلق البعض علي الطبقة المذكورة فئة البرجوازية تشبيها لها بالبرجوازية الانجليزية التي ظهرت في القرن السابع عشر ، برغم الفارق الكبير الذى سنتبينه بعد قليل •

وكان وراء بروز الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة في الشرق الاسلامي عوامل عديدة فكرية واجتماعية ودينية وظروف مختلفة سياسية واقتصادية تظافرت لتجعل من هذه الطبقة الجديدة حملة للواء الحضارة الاسلامية كما وصفها آدم ميتز (٦٣) •

فمن حيث العوامل الفكرية والدينية ، ضمت هذه الطبقة الجديدة أفرادا مثقفين متفقهين في العلوم الدينية كما ضمت كتاب للحكومة ، فكان هوءلاء هم العقل المفكر والمعبر عن الطبقة المتوسطة ، مارسوا البحث والتفقه في أمور الدين وجمع الاحاديث الشريفة ، وهكذا قام رجال هذه الطبقة بدور كبير في توجيه ثقافة عصرهم عن طريق انماء التشريع الاسلامي وتنظيم أحاديث الرسول (ص) وشرح العقيدة

(٦٣) متز ، آدم ، المرجع السابق ، ص ٤٤٢ •

وتفسير القرآن الكريم حتي وصفهم البعض (٦٤) بأنهم كانوا " عصب الاسلام وعطرة الفواح " .

ومن الوجهة السياسية نجد أن صراعات الحكام والمعارضين علي النفوذ خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين دفع بكلا الجانبين للاستعانة بفئة التجار ورجال الاعمال لمساندتهم بما لدى الاخرين من امكانيات تمويلية وخبرة بالدعاية ، وقت كان فيه الحكام قد انصرفوا عن هدف الفتح والتوسع الي السيطرة علي عناصر القوة والنفوذ المالي والادبي في الداخل ، وهنا كان لفئة التجار دورها الملحوظ في التأثير السياسي الذى ساهم في انهاء حكم الامويين عام ٧٥٠ م وتمكن بعض التجار من الوصول الي مراكز السلطة العليا (٦٥) .

وفي عهد الخليفة المعتصم تولي أعيان التجار السلطة التنفيذية العليا في الدولة (٦٦) .

ومن جهة أخرى كانت ممارسة المهن المختلفة والاعمال الحرفية من نصيب الموالي غير العرب ، وأدى ذلك الي تجمع أصحاب المهن في المدن وصارت لكل حرفة سوقها الخاص بها وتكونت منهم طبقة عاملة ، أصبح لها دورها المؤثر في الحياة الاقتصادية ، كما أصبح مصدر قلق سياسي .

---

(٦٤) Joseph Schacht, An Introduction to Islamic Law, Oxford, 1964, p. 1FF.

(٦٥) كان أبوسلمة الخلال — تاجر الخل — قائد الدعوة للعباسيين أول من حمل لقب وزير في التاريخ الاسلامي .

(٦٦) وكان أول وزير للمعتصم هو الطحان ابن عمار (الطحان) كما كان من أشهر وزرائه الزيات وهما من طبقة رجال الاعمال ، وخلال القرن الثالث الهجرى تولت عائلة الماذرائيين — التي تتكون من تجار ورجال أعمال — السلطة العليا للدولة بمصر ، كذلك كان مركز يعقوب بن كلس في عهد الفاطميين حيث كان الوزير الاول لهم (جواثياين ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ — ١٤٣) .

ومع بداية العصر العباسي بدأت الطبقة المذكورة تمارس دورا سياسيا حيث أيدت الدعوة لحكم أسرة العباسيين ، وقد كانت عامة اتباع تلك الدعوة من الفلاحين وأرباب الحرف وبعض التجار (٦٧) •

ومن الوجهة الاقتصادية كان وجود هذه الطبقة يمثل أهمية خاصة بالنسبة للنهضة الاقتصادية في الدولة الاسلامية بالشرق الاوسط حيث أن ازدهار التجارة ونمو الاقتصاد قد استند الي جهد وبراعة تلك الطبقة واحساسها بالاستقلال الاقتصادى عن نفوذ الحكام ، فضلا عن احساس أفرادها بالنجاح في أعمالهم والرفاهية في معيشتهم من خلال توافق سعيهم الدنيوى مع حرصهم علي ثواب الاخرة •

وقد امتدتأثير تلك الطبقة أيضا ليحتوى الصناعة ورجالها ، حيث كانت فئة التجار تختلط وتتعامل مع رجال الصناعة من خلال نشاط تسويق المنتجات الصناعية (٦٨) •

وكان من أهم آثار وفعاليات الطبقة المتوسطة الجديدة علي النشاط الاقتصادى في الدولة الاسلامية مايلي :

- شيوع جو الحرية الاقتصادية في التجارة والانشطة الانتاجية ، نتيجة الشعور بالاستقلال الاقتصادى لدى التاجر أو المنتج ، مما أشاع حالة من الرفاهية والرخاء في الدولة الاسلامية •

---

(٦٧) الدورى ، المرجع السابق ، ص ٨٩ •

(٦٨) هذا وان كان الكتاب والمفكرين المبرزين قد انتموا الي فئة التجار ولم يظهر علماء تلك الفترة من بين رجال الصناعة •

(راجع جواثياين ، المرجع السابق ، ص ١٤٦)

وكانت حرية ممارسة النشاط الحرفي تتيح للفرد من أية ديانة ، مباشرة العمل في المهنة التي يختارها ، حيث لم تضع الدولة الاسلامية قيودا علي غير المسلمين في النشاط الاقتصادى - عدا تحريم بيع السلع المحظورة شرعا للمسلمين كالخمر ولحم الخنزير ، وباستثناء الاوامر التي كانت تمنع اشتغال المسلمين في أعمال وضيعة الشأن لحساب أفراد من الاقليات الدينية (٦٩) .

كما كان من قبيل ممارسة الحرية الاقتصادية ما تشكل من نقابات انتظم فيها التجار في عهد الدولة العباسية ، ترعي شؤونهم وتمنع الغش وتراقب حسن سير المعاملات في المهنة .

- ربط النشاط الاقتصادى بالقيم الدينية نتيجة تفقه أفراد تلك الطبقة في أمور الدين واقتناعهم بأن الكسب وتجميع الثروة لايتعارض مع الاسلام طالما جرى في دائرة الحلال مع آداء حقوق الله .

ويعبر جواثياين عن ذلك الاثر لوجود الطبقة المتوسطة بقوله : " كل ذلك أضفي ظلاله علي حياة المسلمين الذين ربطوا مجتمعهم بالتشريع والعقيدة حيث يتأكد وجود الله المطلق وتتوافر وسائل حماية حرية وممتلكات وشرف المواطن المسلم فيتحقق أمن الانسان وسكينته من خلال تعاليم الثقة في رحمة الله التي تعوضه عن مخاوف يوم القيامة " (٧٠) .

---

(٦٩) كان يمنع زواج العاملين من أهل الذمة في أعمال المجارى والحمامات والكنس مثلا من فئات العائلات المحترمة ولايسمح لهم بالشهادة في مجلس القضاء . (جوثياين ، المرجع السابق ، ص ١٦٩) .

(٧٠) جواثياين ، المرجع السابق ، ص ١١٨ .

وقد ساعدت حالة الاستقلال والاستقرار الاقتصاديين من خلال ذلك علي تحقيق الحرية الدنيوية فضلا عن تحقيق الامن الداخلي للمجتمع •

— تحرير الاقتصاد من النزعة المتصوفة التي شاعت خلال القرن الثالث الهجرى والتي كانت تدعو لنبذ النشاط الدنيوى والاعتكاف للعبادة والعزوف عن متاع الدنيا • ويلاحظ جوثياين في تحليله أن اتباع الحركة الصوفية في تلك الاونة كانوا في الغالب من الفئات الفقيرة الدنيا ، بينما كان التجار يمثلون الطبقة البرجوازية المتوسطة التي شقت طريقها لمكانة اجتماعية متزايدة بفضل سعيها النشط لتكوين الثروات ، ويشبه جوثياين دور تلك الطبقة بطبقة التجار الناشئة في انجلترا في الربع الاخير من القرن السابع عشر عندما تعارضت مفاهيم الطبقة المذكورة مع مفاهيم الرهبنة المسيحية (٧١) •

— شيوع التخصص وتقسيم العمل في الاقتصاد ، حيث كان تقسيم العمل الدقيق من أبرز الخصائص التي ميزت الحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادى للطبقة العاملة في الدولة الاسلامية خلال ما يمكن أن نسميه بالعصور الوسطي المتقدمة ، فقد ظهر تقسيم العمل في ممارسة مختلف الحرف ، حتي أن وثائق جنيزة القاهرة — وهي من أهم المصادر التاريخية عن التاريخ الاقتصادى والاجتماعي للفترة المذكورة — قد ورد فيها ذكر ما لايقل عن ٢٦٥ حرفة وصنعة (٧٢) ، كما أفادت دراسات عديدة أخرى عن وجود عدد أكبر من ذلك من الحرفة المتخصصة في تلك الفترة (٧٣) •

---

(٧١) مما وصفة ريتشارد ستيل في كتابه The Tradesman's عن الرأسمالية الانجليزية المبكرة (١٩٨٤م) •

(٧٢) جوثياين ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ •

(٧٣) مثلا : المقريزى ، طبعة الخطط ، ١٨٥٣ م ، جـ ٢ ، ص ٩٤ •

أما عن علاقات الانتاج في ظل دولة الاقتصاد الاسلامي ، فقد تطورت هي الاخرى في اتجاه تنظيم حقوق الطبقة العاملة من الفلاحين في الزراعة أو العمال والاجراء في الصناعة ، مما نرجيء بيانه ببعض التفصيل الي المبحث التالي •

ويمكن القول هنا أن هذا التطور قد تضمن في الزراعة ظهور عدة نظم تحكم علاقة الزراع بالمالك وبالارض كالمزارعة والمخابرة والمساقاه والمغارسة (٧٤) •

أما في الانتاج الصناعي والحرفي فقد تحددت علاقات العمال الاجراء بأرباب العمل في اطار فئات كالصبيان والاجراء والصناع غير المهرة ، وان كان قد لوحظ أن أصحاب الحرف في هذه الفترة لم يشكلوا بوجه عام طبقة عاملة موحدة في مواجهة طبقة الرأسمالية من أرباب العمل كما أن الانتاج الصناعي بصفة عامة كان قاصرا علي العمل العائلي في محلات صغيرة (٧٥) •

وقبل أن نترك الحديث عن ظهور الطبقة المتوسطة في النظام الاقتصادى لدولة الاسلام ابان ازدهارها ، نبدى ملحوظتين عن دور هذه الطبقة الجديدة في بعث النشاط الاقتصادى مع مقارنته علي مايطلق عليه برجوازية انجلترا في القرن السابع عشر :

والملحوظة الاولي أن دور هذه الطبقة في الاقتصاد الاسلامي كان يتميز بمزاولة نشاطها في اطار من القيم الدينية التي تبدأ من تقوى الله في كل عمل وطلب المثوبة في الاخرة بالاحسان وتجنب المحرمات ، وهي في هذا تتميز تماما عن طبقة البرجوازية الانجليزية التي أشار اليها

---

(٧٤) الرفاعي ، أنور ، الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٣م ، ص ٢٨٠ •

(٧٥) جواثياين ، ص ١٧٠ •

توينبي في حديثه عن التحولات الاجتماعية بانجلترا خلال القرن السابع عشر (٧٦) •

والملحوظة الثانية هي أن الدور النشط للطبقة المتوسطة المشار اليها ـ في اقتصاد الدولة الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ـ هو بالاحرى أقرب شبها بدور فئة المنظمين Entrepreneur الفعال في الاقتصاد الاوربي خلال القرن التاسع عشر تلك الفئة التي تصدت بروح المبادرة الخلاقة لبعث النشاط والتجديد في الانتاج بما يحمله ذلك من تحمل المخاطر الانتاجية ، هذا وان كان نشاط الطبقة المتوسطة المذكورة في الاقتصاد الاسلامي قد تميز كما ذكرنا بالطابع الديني الاخلاقي لاشتغال الكثيرين من أفرادها بالفقه وفروع الدراسة الدينية واضطلاعهم بدور مؤثر في توجيه ثقافة عصرهم •

ثانيا ـ تكافوء الفرص في منفعة وسائل الانتاج الرئيسية واتجاه مقاومة الاقطاع :

وكانت تلك هي السمة الاخرى البارزة في التحولات الاجتماعية لدولة الاسلام في اقتصار القرون الوسطي المتقدمة ، حيث ترتب علي اتساع الفتوحات الاسلامية امتداد رقعة المساحات من الارض الزراعية التي يسيطر عليها المسلمون ، وتضمنت تلك الاحداث اتجاهين متضادين :

أولهما : اتجاه الخلفاء المسلمين الي تدمير الاقطاع القديم في منطقة الهلال الخصيب ، حيث كانت هذه الاراضي أصلا ملكا للفئات الارستقراطية والاقطاعيين من الفرس والبيزنطيين ، فقرر الخلفاء الامويون توزيع ملكية أراضي الصوافي باقطاعها الي بعض الانصار والاقرباء فتولدت عن حركة توزيع الارض علي هذا النحو ظهور طبقة جديدة من الملاك الزراعيين أصبحت معها غالبية الملكيات

---

(٧٦) راجع : جواثياين ، ص ١٢٩ •

الباقية في حيازات صغيرة الي جانب الملكيات المشتركة لاهل القرية (٧٧) ٠

والاتجاه الثاني هو مابدأ في عهد عمر بن الخطاب ، حين افتتح المسلمون السواد بالعراق فطلبوا من عمر رضي الله عنه قسمته بين الفاتحين ، فرفض قائلا : " فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ " فأخاف أن تفاسدوا بينكم في الحياة وأخاف أن تقتتلوا " وعن أسلم بن عمر أن عمرا قال " لولا أني أترك الناس يبابا لا شيء لهم — مافتحت قرية الا قسمتها كما قسم رسول الله (ص) أرض خيبر"

وكتب عمر الي سعد رضي الله عنه : " ٠٠٠ واترك الارضين والانهار لعمالها ٠٠٠ فانك ان قسمتها فيمن حضر ، لم يكن لمن يجيء بعدهم شيء " (٧٨) ٠

وهكذا رعي عمر بن الخطاب حق كافة المسلمين في ريع الاراضي الزراعية التي اكتسبتها الدولة الاسلامية بالفتح ، وأبي أن يختص بها الجند من الفاتحين فيكون بينهم التنازع عليها ويكون الافتيات علي حق باقي المسلمين علي هذه الاراضي ، وهو مادفع بعمر رضي الله عنه الي اقرار أهل السواد في حقهم علي أراضيهم مع ضرب الجزية علي روؤسهم والخراج علي الاراضي ٠

وحيث تعتبر الارض الزراعية من بين وسائل الانتاج الاساسية فان اتجاه عمر كان بمثابة حماية لحق انتفاع المسلمين كافة بجانب من ريع هذه الاراضي ، ممثلا في الخراج الذى فرض علي أصحابها ، ويذهب البعض (٧٩) الي أن تصرف عمر في هذا الصدد قد انطوى علي نوع من اقرار الملكية العامة للارض ٠

---

(٧٧) الدورى ، مقدمة في تاريخ نور الاسلام ، المرجع السابق ، ص ٨٧ ٠

(٧٨) ابن الجوزى ، أبي الفرج عبدالرحمن ، مناقب أمير الموءمنين عمر بن الخطاب ، تحقيق زينب القاروط ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٠ م ، ص ٩٢ ، ٩٣ ٠

(٧٩) شلبى ، د ٠ أحمد ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، ص ٢٣٠ ٠

كما اتخذ عمر بن عبدالعزيز موقفا من الملكية الاقطاعية للاراضي الزراعية التي تركزت في أيدى كبار الملاك ، وخاصة عندما لوحظ ترك الفلاحين لاراضيهم تخلصا من عبء الضريبة والهجرة للمدن ، حيث خشي عمر من توسع الملكيات الكبيرة علي حساب الملكيات الصغيرة والاراضي المشتركة للقرية فاتخذ بعض التدابير المالية بهدف الحيلولة دون تركز الملكية الزراعية في أيدى فئة قليلة فكان من تلك الاجراءات التمييز في الضريبة بين الاراضي المزروعة وغير المزروعة كما اعتبر الخراج ايجارا للارض لا ضريبة علي أهل الذمة (٩٠) وأخذا بروح التنظيم الذى بدأه الخليفة عمر بن الخطاب من اعتبار الاراضي الخراجية وقف علي الامة الاسلامية كافة ، قام عمر بن عبدالعزيز بمنع الملاكين العرب من شراء الاراضي الخراجية وتحويلها الي أراضي عشرية ، بل استرد ماسبق أن منحه بعض الخلفاء السابقين من أراض وزعت كهبات علي بعض الناس فأعادة لملكية الدولة (٩١)

وهكذا كان تطور العلاقات الانتاجية وأوضاع تملك وسائل الانتاج الرئيسية وخاصة الاراضي الزراعية في اتجاه الوقوف ضد سيطرة فئة مالكة تتركز في يدها الملكية علي فئة تزرع ولا تملك ، وهو تطور كان يتلاءم دائما مع روح الشريعة الاسلامية دون جمود عند مواقف معينة اتخذها بعض الخلافاء أو حتي ارتآها رسول الله (ص) في ظل ظروف معينة •

ولقد كان هذا التطور مما استلزمته مواجهة مشكلات التنظيم الاقتصادى الطارئة علي مجتمع الدولة الاسلامية المترامية بما اشتمل عليه تكوين هذا المجتمع من تركيبة جديدة اختلط فيها العرب بالفرس والمصريين والروم وغيرهم ، وكان اتجاهعمر بن الخطاب رائدا في هذا الصدد عندما اتخذ من الاجراءات مايكفل الحيلولة دون قيام ارستقراطية عسكرية تتركز في يدها ملكية الاراضي المفتوحة علي حساب حق الكافة من المسلمين في خراج الارض ، وعندما حال أيضا دون انغماس الجند في الاستغلال الاقتصادى والتدخل في الشوءون المدنية (٩٢) •

---

(٩٠) الدورى ، المرجع السابق ، ص ٨٧ •
(٩١) شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ص ٢٣٠ •
(٩٢) راجع ، عثمان ، فتحي ، التاريخ الاسلامي والمذهب المادى فيالتفسير ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ •

المبحـــث الرابـــع

تطور القطاعات الرئيسية في ظل الاقتصاد الاسلامي

"وأن ليس للانسان الا ماسعي " (النجم ٣٩)

١ – الزراعـــة :

أصول المكاسب في الاسلام ثلاثة : الزراعة والصناعة والتجارة ، ولكن الزراعة لها منزلة متقدمة علي غيرها كما ورد في كتب الفقه ، حيث قال الماوردى أن " الزراعة أطيب لانها الي التوكل أقرب " وقال النووى بأفضلية الزراعة " لعمـــوم النفع بها للادمي وغيره وعموم الحاجة اليها " " ولان نفعها يتعدى الي غير الزراع من الطيور والبهائم " (٩٣) •

لذا نظر المسلمون الاوائل في صدر الاسلام الي الزراعة كمصدر طيب للربـح والي الارض كثروة محترمة ، وكان الرسول عليه السلام يشجع الزراعة ويقطع الاراضي الصالحة للزراعة لمن يتعهدها بالاستثمار وحفز المسلمين علي احياء الارض الموات •

وقد دفعت رعاية الدولة الاسلامية للزراعة وتنظيم الرى واصلاح الترع والقنوات بالانتاج الزراعي للنمو والازدهار ، فعني بذلك معا وية في الشام وعمـرو بن العاص في مصر ، وفي عهد الحجاج بن يوسف الاموى حفرت الانهار وأقيمـــت القناطر والسدود وأصلحت الجسور (٩٤) •

---

(٩٣) الحبيشي ، أبو عبدالله محمد الوهابي ، البركة في فضل السعي والحركة ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢م ص ٨ ، ٩ •

(٩٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ص ٢٩٠ •

ونظمت شبكات الرى المحكمة في مصر والعراق وايران والاندلس وغيرها ، وتنوعت طرق الرى ووسائله وطبق حكم الشريعة في كون الماء حق للجماعة لايحل لفرد بيعه أو شراؤه (٩٥) .

وأنشيء في مدينة سرو شرقي فارس " ديوان الماء " لتنظيم شوءون الرى واتخذت المقاييس علي مواضع مختلفة من الانهار وعند السدود حيث يجرى تقسيم الماء علي المساحات المنزرعة بحسب مستوى ارتفاعه ، وشقت في شرقي فارس قنوات للرى في باطن الارض تعلوها القناطر ، وذلك لتخطيط محكم يكفل انسياب المياة (٩٦

واهتم المسلمون بتنمية الانتاج الحيواني والدواجن كما اهتموا بالصناعات الغذائية وتجهيز المنتجات الزراعية كعصر واستخلاص الزيوت النباتية والسكر من القصب واستخراج العطور من الورد والزهور المختلفة كالبنفسج والقرنفل والياسمين (٩٧) .

وقد توسع المسلمون في عهد الدولة الاموية في تملك وحيازة الارض وزراعتها (٩٨) وعني الامويون باستصلاح الاراضي عن طريق تجفيف المستنقعات في البطائح جنوبي الطرق وكذا احياء الارض المواتي .

---

(٩٥) وفي هذا يوضح آدم متز أن الجانب الاكبر من نظم وتشريعات الحياة ، والرى في أوربا انما هي مقتبسة من التشريع الاسلامي المشار اليه .

(٩٦) ابراهيم ، حسن ، تاريخ الاسلام جـ ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٩٧) حتي ، تاريخ العرب ترجمة مبروك نافع ، ط٣ القاهرة ١٩٥٢م جـ٢ ، ص٤٤٠

(٩٨) وتمثل هذا الاتجاه في السعي لتحويل الاراضي الخراجية الي أراض عشورية وتملكها في الربع الاخير من القرن الاول الهجرى ، كما توسع الخلفاء الامويون في اقطاع الصواني (الاقطاعيين الهاربين) الي أنصارهم وأقربائهم (راجع : الدورى : ص ٨٦ ، فتحي عثمان ، ص ٢٩ مرجعين سابقين) .

ومع اتجاه الملاك الجدد للاراضي الزراعية للانتقال من المدن والاقامة علي أراضيهم في الريف ، ساعدت الزراعة علي انتقال المجتمع من الحالة القبلية الحربية الي طور الزراعة والحياة المدنية .

وفي العهد العباسي ازدهر نشاط الزراعة بشكل ملحوظ ، مع استقرار الامن والاعتدال في جباية الخراج ، وكانت انتاجية الزراعة مرتفعة علي وجه الخصوص في العراق حيث تتميز الاراضي بالخصوبة ، حتي أن حصيلة الخراج من أرض السواد العراقية بلغت في بعض السنوات مايقرب من ثلث خراج الدولة بكاملها .

وقد عني وزراء العهد البويهي بصفة خاصة بتنظيم الرى وتطهير الانهار وسد الثقوب لمقاومة مخاطر الفيضانات (٩٩) واهتم الوزير فخر الملك باصلاح الاراضي الزراعية حيث كان يشرف بنفسه علي ذلك (١٠٠) ، وكان من رسائل الوزير خواساده لتنمية الزراعة وتشجيعها ، اقطاع مساحات كبيرة من الاراضي الصالحة للزراعة حول مدينة حيران لبعض القبائل العربية (١٠١) ، كما قام الوزير نظام الملك في العهد السلجوقي باقطاع الاراضي للقبائل التي يتكون منها الجيش السلجوقي من أجل توفير الاستقرار واستتباب الامن مما ساعد علي ازدهار الزراعة (١٠٢) .

وكان من ثمار تلك الجهود في العصر العباسي ، ارتفاع الانتاج من المحصول الزراعي ، ومن أمثلة ذلك تحسن غلة الزراعة في عهد الوزير هبة الله بن المطلب بنسبة ٦٥ / بفضل جهود الوزير المذكور في اصلاح الاراضي وتنمية مواردها ومراقبة العاملين فيها (١٠٣) .

---

(٩٩) الزهراني ، محمد مسفر ، نظام الوزارة في الدولة العباسية : العهدان البويهي والسلجوقي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠ م ، ص ١٧٩ .

(١٠٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٧ ص ١٦٨ .

(١٠١) السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ ٤ ، ص ٣٠٧ .

(١٠٢) حسين أمين ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(١٠٣) أمين ، حسين ، العراق في العصر السلجوقي ، ص ٢٠٦ ، ٢١٠ .

علاقات الانتاج وأدوات وفنون الانتاج وأنواع الحاصلات :

سادت في ظل الدولة الاسلامية عدة نظم تحكم علاقة الزراع بالارض منها الايجار ومنها المزارعة حيث يمول المالك نفقات الاستثمار الزراعي ويتعهد الفلاح المحصول ، وكذا الخابرة حيث يقوم المالك ببذر الارض ورعاية الزرع ثم يتعهد الي الفلاح بالحصاد ، وفي الحالتين الاخيرتين يوءول الي الفلاح جانب من المحصول ، ومنها كذلك المغارسة بأن يعهد مالك الارض الي الفلاح بغرس الاشجار ويمنحه حق استغلالها لسنوات ثم يتقاسم معه الارض المغروسة في نهاية مدة العقد ، وأخيرا استخدم نظام المساقاه بأن يعهد المالك ببستان الي الفلاح الذى يرعاه مقابل نصيب في الثمار عند جنيها ، مع تحمل المالك بأية تكاليف استثمارية (١٠٤)

وقد عرف عن وزراء العهد البويهي حرصهم علي تنظيم العلاقة بين الدولة والمزارعين ، فضلا عن تيسير اجراءات وقواعد جباية الخراج كما سيأتي (١٠٥) •

أما عن فنون وأدوات الزراعة فقد استخدم المسلمون الالات المائية لرفع المياه كالدولاب والغرافة والناعورة ، أما أدوات العمل الزراعي فكانت غالبا بسيطة كالمحراث البسيط الذى تجره الدواب ، وان كانت المصادر التاريخية نادرة في هذا الخصوص (١٠٦) •

وقد أدخل المسلمون الي الاندلس نظام زراعة المدرجات في الجبال ، كما استخدموا دليلا لمواعيد زراعة الحاصلات المختلفة يسمي تقوم القرطبى ، انتقل فيما بعد الي سائر أوربا (١٠٧) •

---

(١٠٤) الرفاعي ، الاسلام في حضارته ونظمه ، المرجع السابق ، ص ٢٨٠ •
(١٠٥) الزهراني ، المرجع السابق ، ص ١٧٩ •
(١٠٦) الرفاعي ، المرجع السابق ، ص ٢٨٠ •
(١٠٧) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٣٠٨ •

أما عن أنواع الحاصلات الزراعية فقد تنوعت في عهود الدولة الاسلامية تنوعا كبيرا وتحسنت أصنافها ، ومن ذلك حاصلات الحبوب كالقمح والشعير والارز ومن الاشجار ومن المواد الخام الزراعية القطن وقصب السكر والكتان ومواد الصباغة

السياسة المالية وتنمية الزراعة :

وقد استخدم الحكام المسلمون أدوات السياسة المالية لتنمية وتشجيع الزراعة ، وذلك علي وجه الخصوص في ظل العهد العباسي ، فعندما لاحظ الوزير أبو محمد المهلبى تدهور الانتاج الزراعي واهمال الناس لعمارة الاراضي الزراعية بسبب وطأة أموال الخراج المفروضة علي الارض دون تمييز بين أرض وأخرى من حيث انتاجيتها أو نوع المحصول ، اجتمع الوزير بكبار الملاك الزراعيين وتدارس معهم الوضع وجرى الاتفاق علي تخفيف عبء التحصيل وجعله أكثر ملاءمة حيث تأخذ الدولة العشر من الانتاج حبا (عينا) أيا كان حجم الانتاج ، وذلك بعد أن كان المستحق هو العشر عن كل جريب (وحدة قياس مساحية للارض) من الحنطة وعشرين درهما عن الجريب من الشعير ، كما تصالح المهلبى مع أهالي البصرة عن متأخراتهم الضريبية علي أن يدفعوا للدولة مبلغا معينا ، وساعدت هذه الاجراءات بالفعل علي دعم الانتاج الزراعي وتنشيط تعمير الاراضي الزراعية وانتعشت تجارة الحبوب وزاد نصيب الدولة منها ، كما ارتفع دخل الدولة من حصيلة الضرائب (١٠٨) ٠

كذلك وافق الوزير المهلبى علي ارجاء سداد المستحقات الخراجية الي موعد حصاد المحصول تجنبا لاثقال كاهل الزراع بالمديونية بل أمد الفلاحين غير القادرين بالسلفيات النقدية والعينية علي أن يسددوها عند جني المحصول (١٠٩)

---

(١٠٨) مسكويه ، تجارب الامم جـ ٢ ص ١٢٩ (راجع الزهراني ، والمرجع السابق ص ١٧٨) ٠

(١٠٩) الزبيدى ، العراق في العصر البويهي ٠

٢ — الصناعة والتعدين :

يذكر في بيان فضل الصناعة في الاسلام ماورد في سورة سبأ اشتغال نبي الله داوود في صناعة الدروع ، اذ استجاب الله لدعاه بأن يعلمه عملا منتجا يستغني به ويغني عياله ، فألان الله عز وجل له الحديد وعلمه صنعة الدروع وأوصاه باتقانها : " ولقد آتينا داوود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا ... " (سبأ ١٠ ، ١١) .

وقد كان للنشاط الصناعي دور كبير في النهضة الاقتصادية في دولة الاسلام فبينما هدأ نشاط الحروب والفتوحات في ظل الدولة العباسية احترف كثير من المسلمين المهن الصناعية واتسع النشاط الصناعي مع ازدهار مستوى المعيشة ونماء الثروة ومظاهر الترف ، حيث زادالطلب علي المنتجات الصناعية مع اتساع السوق كما توافرت المعرفة الفنية بأنماط السلع الصناعية والمواد الخام اللازمة لانتاجها مع انتشار تجارة المسلمين واتساع رقعتها .

فكانت أهم الصناعات المنسوجات بأنواعها — صوفية وحريرية وقطنية — فاشتهرت الشام بالانسجة الحريرية المشجرة ، وتزعم العرب تجارة الحرير في العالم خلال القرون الوسطي ، ونسبت أسماء بعض المنسوجات الي مواطنها في الدولة الاسلامية كالفستان (الفسطاط) والداماسك (دمشق) والموصلين (الموصل) . وتوطنت بعض الصناعات في مناطق اشتهرت بها كمنسوجات الكتان في فارس ، والاقمشة القطنية في العراق وخرسان ، كما اشتهرت فارس بصناعة السجاد (١١٠) .

ومن الصناعات المعدنية تقدمت صناعة الصياغة وتطعيم المعادن المختلفة، كما اشتهرت دمشق بصناعة الاسلحة والحديد والصلب والموصل بالانية والمصنوعات النحاسية ، ومن الصناعات المعدنية السكر في مصر وفارس ، والزيوت ومنتجات

---

(١١٠) الرفاعي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ — ٣٠٥ .

التقطير والمشروبات في الشام ،وغير ذلك من الصناعات التي ازدهرت في عهد الدولة الاسلامية كثير مثل صناعات الورق (١١١) والزجاج الملون والفخار والخزف والجلود ... الخ .

كذلك كان لتقدم صناعة البناء والتشييد دورها في الازدهار العمراني الذى تمثل في اقامة وتشييد القصور والمساكن الانيقة .

وكان للتقدم العلمي الذى حققه المسلمون أثرة علي التقدم الفني في الصناعة والملاحة والحرب ، فقد كان للمسلمين فضل اكتشاف العديد من المخترعات النافعة التي وصفها البعض بأنها قلبت وجه الدنيا (١١٢) مثل الورق الرخيص الكلفة وأثره في نشر العلم والمعرفة وبارود المدافع والبوصلة أثرهما في تقدم امكانيات الحرب وفنون الملاحة واستخدموا قوة مياه الانهار والريح في توليد القوة المحركة للطواحين .. وحتي ما لا يرجع الفضل في اكتشافه أصلا للمسلمين من تلك المخترعات ، قد كان لهم فضل نشره في أنحاء العالم .

وفي نشاط التعدين عني المسلمون باستخراج المعادن والاملاح المختلفة وكذا الاحجار الكريمة وأحجار البناء ، وذلك من مختلف أنحاء الدولة الاسلامية وخاصة في عهد العباسيين ، فاستخرج الذهب والفضة من مصر والسودان والمغرب العربي والحجاز وكرمان وخراسان كما استخرج الحديد من الشام وكرمان وفارس .

---

(١١١) كان دور العرب بارزا في تطوير صناعة الورق التي كانت تعتمد فيما سبق علي الحرير في سمرقند وبخارى ، فأدخل العرب (يوسف بن عمرو) القطن ثم الكتان وشاع استخدام ورق العرب في القرن الثالث عشر الميلادى وانتشر في فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا ، وكان ورق المخطوطات العربية يفوق انتاج الدول الاخرى رونقا وصقلا .
(سيديو ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥) .

(١١٢) سيديو ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥) .

التنظيم وعلاقات الانتاج في الصناعة :

كان الانتاج الصناعي في الدولة الاسلامية يعتمد علي العمل العائلي بالاساليب التقليدية فكانت وحدات الانتاج صغيرة الحجم عدا مصانع الورق (١١٣) فكان يمتلك أدوات الانتاج البسيطة التي يمارس بها حرفته بصفة مستقلة ، أما العمال الذين كانوا يعملون بأجر لحساب غيرهم فكانوا ينقسمون الي فئات ثلاث (١١٤) : الصبيان تحت التمرين ويرتبطون برب العمل بعلاقة شخصية طويلة الاجل ، والاجراء وكان ارتباطهم عادة بغير عقود محررة ، ثم جاء الصناع غير المهرة كصبيان المأموريات والرقاصين •

كما حكمت علاقات النشاط الصناعي في كثير من الاحيان — خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر — المشاركات الحرة التعاونية في الانتاج والتجارة ، وذلك في العديد من الصناعات والحرف منها صناعة الزجاج والصباغة وصياغة الذهب ونسج الحرير ، وكان نظام المشاركة يشمل الاشتراك في رأس المال والعمل والادوات (١١٥) وأحيانا كانت المشاركة تعتمد علي اقتراض رأس المال من آخرين ، وبصفة عامة كانت التكاليف تقسم بالتساوى كما تقسم الارباح في نهاية المدة ، كما وجد نوع من المشاركة في شكل موادعة حيث يودع الممولين أموالهم لدى بعض التجار أو الصناع والحرفيين لاستثماره لحسابهم بشروط متساهلة (١١٦) •

---

(١١٣) اذ كان يملك تلك الصناعة في البداية الحكام والخلفاء ثم آلت الي الطبقة المتوسطة — السالف الاشارة اليها — بما يملكه هوءلاء من مقدرة تمويلية كذلك كانت بعض مصانع السكر مملوكة لاصحاب روءوس الاموال الذى يعتمدون علي العمل الاجير •

(١١٤) جواثياين ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ •

(١١٥) وتراوحت مدة الشركة بين ستة شهور وخمس سنوات •

(١١٦) جواثياين ، ص ١٨٠ — ١٨٢ •

وقد تميز التنظيم الصناعي في الدولة الاسلامية خلال القرنين الحادى عشر والثاني عشر الميلاديين بميزتين :

أولاهما : الحرية الاقتصادية في ممارسة المهن المختلفة ، حيث لا قيود من ديانة أو جنسية (١١٧) ، وهذه الحرية الحرفية كان يكفلها النظام الاجتماعي السائد والذى لم يكن يتضمن وجود نقابات تقيد دخول الحرفة باشتراطات معينة ، وساعد ذلك علي تطور الحرف وارتفاع انتاجيتها بسبب روح المبادرة الفردية والمنافسة ، ولم يكن يتعارض مع ذلك وجود وكلاء من جانب الدولة يشرفون علي المهن المختلفة لمنع الغش •

والثانية — هي شيوع ظاهرة تقسيم العمل الي حد التخصص الدقيق ، فانقسام صناعة الاحذية وحدها الي خمسة فروع علي الاقل والمصنوعات الجلدية الي صناعات السروج والقرب والحقائب •• الخ (١١٨) •

وقد ترتب علي تقسيم العمل الدقيق ارتفاع مستوى الكفاءة الانتاجية مما بلغ الي درجة الابداع والمهارة الفائقة في العديد من الحرف كصناعة الادوات والقطع المعدنية والخزفية والمنسوجات المشغولة والاعمال الخشبية علي أن تقسيم العمل علي ذلك الوجه لم يمنع من انتماء الصناع والحرفيين من مختلف الحرف الي طبقة اجتماعية واحدة •

---

(١١٧) أتاحت هذه الحرية الاقتصادية تخصص اليهود في بعض الحرف والصناعات مما يرجع تخصصهم فيها لعوامل تاريخية ، كتخصصهم في نسج الحرير والكتان بالتوارث في نطاق عائلي (جواتياين ، المرجع السابق ص ١٦٩) •

(١١٨) كما تفرعت حرفة النجارة الي نشارين وصانعي صناديق وخراطين •••• بل كان في هذا العصر من **الصناعات** ما لم يعد له وجود في الوقت الحاضر كصانعي الاقفال الخشبية للابواب وصانعي عصي الكحل (جوانياين ص١٦٣)

وكان من نتائج تلك الاوضاع التي سادت ممارسة الصناعة في الدولة الاسلامية ، بروز ظاهرتين ساعدتا علي تحقيق مايعرفه الاقتصاد الحديث بوفورات الانتاج نتيجة للتوطن Economics of Localization وعلي شيوع التقدم الفني في الصناعة نتيجة انتشار الاسلام عبر دول حوض البحر الابيض المتوسط ٠

فقد بدأت منذ هذا العصر ظاهرة توطن الصناعات المختلفة كل في منطقة أو حي معين في نطاق المدن ، يدل علي ذلك ما تردد في وثائق جنيزة القاهرة من ذكر درب الخراطين ودرب الصوافين ودرب النحاسين ٠٠٠ الخ ٠

وكان هذا التوطن أو التركز الحرفي يرجع أما لاغراض تقنيةأو لاغراض ادارية لتسهيل اشراف الحكومة علي نشاط العمل ٠

والظاهرة الثانية هي دولية الصناعات والحرف التي جرى تناقلها عبر دول حوض البحر الابيض المتوسط بفضل انتشار الاسلام الذى أظل تلك الدول عندما غطتها فتوحاته ، ففي ظل الاسلام كان الاختلاط الحر الذى امتزجت فيه الشعوب من أطراف الصين الي حدود فرنسا في نطاق التبادل السلعي وتبادل الخبرات الفنية والتعرف علي مواصفات السلع ٠

ففي تلك الاونة قدم الي مصر صناع من أسبانيا ومن ايران ومن بيزنطه ـ كان من بينهم الصاغة والصباغين والنساجين ، كما قدم صناع الزجاج وغزالي الحرير من سوريا وفلسطين ، كذلك جرى انتقال الخامات من بعض تلك الاقطار لتجرى عليها عملية التصنيع في أقطار أخرى (١١٩) ٠

---

(١١٩) ومن ذلك انتقال الكتان المصرى من الدبيقي في مصر الي كازرون وتوز في فارس ليصنع منه النسيج الذى يطلق عليه الدبيقي ٠
(جواتياين ، ص ١٧٣) ٠

وهاجرت الكثير من الصناعات بين تلك الاقطار كانتقال صناعة السجاد الطبرى من طبرستان (جنوبي بحر قزوين) الي أماكن عربية أخرى (١٢٠) •

٣ — التجارة والمواصلات :

بعد عهد الفتوحات الاسلامية وعندما استتبت الاحوال ودانت للمسلمين الشام والعراق وفارس ومصر ، وتوحدت السلطة في تلك الارجاء ، ازدهرت التجارة واتسعت فبلغت أوجها في العهد العباسي ، وكانت العوامل الرئيسية لنماء تجارة المسلمين اتساع رقعة البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي مما يقدر بمثل مساحة أوربا وكذا وحدة العملة المستخدمة في المبادلات وتقدم الانتاج الصناعي وتنوعه وارتفاع مستويات المعيشة والدخول والثروات ومظاهر الترف •

وكان لارتياد التجار العرب لبعض البقاع بشجاعة ما ساعد علي تقدم الكشوف الجغرافية ، فبلغوا سواحل افريقيا الشرقية والهند والملايو والصين وروسيا وألمانيا وانجلترا ، وهكذا شقت تجارة العرب طريقها في اتجاهات عديدة فيما بين أسبانيا والمغرب ومصر والحبشة وجزيرة العرب وفارس وروسيا والهند والصين ، وذلك عبر مكة والمدينة والكوفة وبغداد ودمشق ، فظهرت مراكز جديدة للمبادلات كحلب والبصرة والقاهرة والاسكندرية وبغداد •

كما تنوعت أصناف السلع التي تحملها تجارة المسلمين فضمت القصدير والذهب والاحجار الكريمة من الهند والخزف والعطور من الصين والجلود من روسيا والزيوت العطرية والصوف والكتان من فارس (١٢١) •

---

(١٢٠) وكذا انتقال لباد طالقان (شمالي ايران) ليصنع في قلعة حماد بالجزائر وكذا في ليبيا ، وذلك خلال القرن الحادى عشر الميلادى (المرجع أعلاه) •

(١٢١) الرفاعي ، ص ٣٠٦ — ٣١٦ ، سيديو ، ص ٤٢٠ •

وتدعمت الوسائل والمرافق المساعدة التي تخدم تسهيل التبادل التجارى فمدت الطرق وانتظم البريد وأقيمت الفنادق وخانات التجارة في مفترق الطرق لتنشيط حركة السفر ، كذلك عرفت الموازين والمكاييل بأنواعها المختلفة .

وقام عمر بسك نقود اسلامية وتمتعت العملات الاسلامية بالقبول في سائر الدول (١٢٢) واستخدمت أوامر للدفع تسمي " السفاتج " والحوالات كما تعامل المسلمون في الاوراق التجارية في شكل صكوك وانتشرت مكاتب الصيارفة والمحاسبين (١٢٣) .

كذلك نشطت حركة الملاحة البحرية لاساطيل المسلمين عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى وبلغت بسفن المسلمين موزامبيق وموانيء الصين واتسعت حركة السفن في مواني طرابلس بالشام وعيذاب وعدن .

ولم يكن لاوربا خلال القرن العاشر الميلادى سلطان علي البحر الابيض المتوسط ، فكان بحرا عربيا ، وكان لابد لمن يرتاده أن يخطب ود العرب ، كما فعلت نابلي وغيرها (١٢٤) ، كذلك كانت التجارة مع الهند والصين في المحيط الهندى حكرا علي العرب .

---

(١٢٢) كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس واستمر ذلك حتي عهد عمر الذى قرر علي أثر اتساع الفتوحات الاسلامية ، توحيد وزن الدرهم ـ حيث كانت تتعدد أوزان الدراهم الكسروية وتم ضرب دراهم اسلامية عام ١٨ هـ عليها عبارات لااله الا الله والحمد لله ، تزن ١٤ قيراط مثقال (الخضرى ، المرجع السابق ص ٩٤ ، ٩٥) .

(١٢٣) آدم متز ، المرجع السابق ص ١٥٤ .

(١٢٤) وكانت الملاحة الاوربية ضعيفة في ذلك العصر ، فقد غزت سفن الفاطميين جنوب فرنسا سنة ٩٢٥ م ، كما غزت مدينة جنوة بايطاليا سنة ١٠١١ م . (آدم متز ص ٣١٧) .

وقد أرسي المسلمون في تلك الفترة قواعد في الملاحة البحرية ، شاعت في أوربا واقتبست منها الدول المختلفة ، كما استخدم العرب في وقت مبكر ابرة البوصلة لتحديد اتجاهات الملاحة (١٢٥) ٠

وبلغت فئة التجار مكانة اجتماعية مرموقة في القرون الاولي للاسلام (١٢٦) وواصل الكثير منهم مهنة آبائهم بالرغم من توليهم بعض مناصب الدولة ، واشتغال بعضهم بالفقه وجمع الاحاديث الشريفة (١٢٧) ، بل اضطلعت فئة التجار كما سلف بيانه بدور هام في توجيه الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كطبقة متوسطة جديدة يشبه الي حد ما دور البرجوازية فيأوربا ٠

---

(١٢٥) راجع : مصباح ، د٠أحمد ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ط ٢ ، ١٩٧٨م ، سيديو المرجع السابق ص ٤٢١ ٠

(١٢٦) هذا وان كانت بعض المؤلفات قد أغفلت ابراز أهمية طبقة التجار لانصراف اهتمامها بأخيار فئة الحكام والقواد العسكريين ، مما تشكك معه البعض في مدى الاحترام الذى كانت تتمتع به مهنة التجارة في عهد الامويين (راجع : جواثياين ، ص ١٣٠) ٠

(١٢٧) ومن هوءلاء سعيد بن المسيب وهو شريف قرشي كانت تجارته القماش ولقب ب " مشرع أهل المدينة " كذا أبي هريرة الصحابي والفقيه المعروف الذى كان حاكما شرقي الجزيرة العربية ، اذ كان جانب ثروته يتكون من تربية الخيل (جواثياين ص ١٣١) ٠

وقد خضع نشاط التجارة في ظل عهود الاسلام الاولي لنظام الحسبة في مراقبة الاسواق ومنع الغش والتلاعب بالاسعار ، وفي العصر العباسي فرض البويهيين والسلاجقة تنظيما للتجارة يكفل مكافحة الاحتكار للمواد الغذائية الاساسية وتوفير استيراد السلع الغذائية عن طريق الاستيراد (١٢٨) •

كما اهتم العديد من زراء البويهيين بتنشيط التبادل التجارى وتسهيل وسائل انتقال السلع عبر أجزاء الدولة ورفع كفاءة الموانيء في استقبال السفن •

كذلك كفل تنظيم الدولة الاسلامية للتجارة الخارجية ، الرقابة علي حركة التجارة عبر الحدود ، ففرضت المكوس بفئات أعلي علي الاجانب ، ومتوسطة علي غير المسلمين من المقيمين ، ومنخفضة علي التجار المسلمين •

---

(١٢٨) ومن الجهود البارزة في هذا الصدد ما اتخذه الوزير البويهي محمد بن صالحان عام ٣٧٧ هـ (راجع : الزبيدى ، العراق في العصر البويهي ، ص ١٥٧ ، أبو شجاع ، تجارب الامم ، ص ٣٧) •

المبحـــث الخامـــس

السياسة الاقتصادية والمالية وادارة أموال المسلمين

" لكم علي أيها الناس أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ان شاء الله وأســد ثغوركم ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك " (ميثاق عمر)

١ ـ السياسة الاقتصادية والتنميــة :

قبل التطرق الي دراسة أوضاع المالية العامة لدولة الاسلام الاولي وما اتبع من سياسة مالية لادارة أموال المسلمين ، نبدأ بالاشارة الي السياسة الاقتصاديـــة بوجه عام في العصور محل الدراسة وما انطوت عليه من تكريس الجهود للتنميـــة الاقتصادية بكل جوانبها ، وكذا تطور نظم الادارة والدواوين وما التزم به الخلفـاء في الغالب من صفات أخلاقية وقيم اسلامية كانت لها أعمق الاثر علي تحقيق دولة الرفاهية في ظل الحكم الاسلامي •

وقد تجلت معالم السياسة الاقتصادية منذ عهد عمر بن الخطاب فيما أعلنه في ميثاقه عند توليه الخلافة :

" لكم علي آيها الناس أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ان شاء الله وأســد ثغوركم ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك " •

وهو بذلك يتعهد بالعمل علي زيادة الدخل والنهوض بمستوى معيشـــة المسلمين وتوفير الحد الادني الملائم من ضرورات الحياة والمحافظة علي أرواح رعيته من الهلاك وكفالة أسباب العيش للفقراء وأسر الجنود المقاتلين فـــي غيابهم (١٢٩) •

---

(١٢٩) " واني بعد شدتي تلك أضع خدى علي الارض لاهل العفاف وأهل الكفاف • واذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال " (ميثاق عمر) •

وقد اتضحت جهود التنمية الاقتصادية من خلال السياسة الاقتصادية في العصر العباسي مما ذكره الثعالبي في بيانه لواجبات الوزراء من أنه يجب علي الوزير : " السعي في عمارة البلاد ، واصلاح خللها ، وتثمير الاموال والمزروعات وتحصيل آلات العمارة ، والترغيب في ذلك ، فان بالعمارة تغزر الاموال ، وبالاموال تشمخ الممالك وتكثر الاعوان " (١٣٠) •

وهكذا تتمثل أركان السياسة الاقتصادية في العمل علي تنمية الثروة وترشيد استخدام الموارد والتوسع في الاستثمار في الزراعة وغيرها والتكوين الرأسمالي ممثلا في توفير الالات ومستلزمات الانتاج ، وترغيب القطاع الخاص في زيادة الاستثمار المنتج ، حيث يعتمد علي كل ذلك النمو الاقتصادى وارتفاع الدخل وقوة بنيان الدولة •

وقد ذكر مسكويه كيف كانت دعائم السياسة الاقتصادية التي يضطلع بها وزراء بني العباس تقوم علي الاهتمام بعمارة البلاد وتنمية الاموال وتوفير معدات الانتاج اللازمة للزراعة ••• الخ (١٣١) •

السياسة الاقتصادية للخلفاء في مواجهة الازمات الاقتصادية :

كانت أزمة " عام الرمادة " في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أبرز الامثلة علي تصدى الحاكم المسلم لما يحل بالمسلمين من ضوائق اقتصادية باجراءات نبعت من مبادئ الاسلام ، ففي عام المجاعة التي انتشرت في بلاد العرب لمدة تسعة شهور من أواخر العام السابع عشر الهجرى هلك الحرث والضرع والزرع لانقطاع الامطار وتحركت الطبقات البركانية فاحرقت سطح الارض وثارت الريح بتراب أسود وأقفرت الاسواق من السلع •

---

(١٣٠) الثعالبي ، تحفة الوزراء ص ٦٩ •

(١٣١) كان للوزير البويهي أبو الفضل بن العميد رسائل عن الطرق الصحيحة التي تتبع في عمارة البلاد واستغزار الاموال واصلاح الاراضي الزراعية (مسكويه المرجع السابق ، ص ٢٧٩) •

فسارع عمر بأخلاق وتدبير الحاكم الذى يعيش آلام رعيته بمواجهة الازمة بأن استورد علي الفور مايلزم اغاثة الشعب من قوت ، اذ كتب الي عماله في العراق والشام يستنجدهم لغياث أهلهم في شبه الجزيرة العربية (١٣٢) •

وكان أن سارع الولاة في بقاع الدولة الاسلامية الي نجدة أهل الجزيرة ، وكان أسرعهم أبو عبيدة الجراح في الشام كما استجاب كل من عمرو بن العاص في فلسطين وسعد بن أبي وقاص في العراق (١٣٣) •

وقام عمر بتنظيم عملية الاغاثة من توزيع الغذاء والكساء علي أهل الامصار والبادية ، وتولي الامر بنفسه في المدينة المنورة جند رسله الي مختلف أرجاء شبه الجزيرة ينحرون الذبائح ويوزعون الدقيق والكساء •

وكان عمر يطعم أهل المدينة علي مائدته وكان عماله يسهرون علي طهو الطعام منذ السحر ، وكان يرسل الدقيق والتمر والادم الي منازل القادرين علي تهيئتها لغذائهم شهرا بشهر ، يوزعه حصصا تشبه نظام البطاقات المعروف في الوقت الحاضر •

وتعهد عمر المرضي من الناس وكان يدبر الاكفان للموتي ويصلي عليهم ، وأمر جنوده بعدم القتال أثناء المجاعة الا اذا أكرههم العدو علي الدفاع عن

---

(١٣٢) من ذلك ماكتبه لعمرو بن العاص في فلسطين : " سلام عليك ، أما بعد أفتراني هالكا ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك ، فياغوثاه ، ياغوثاه " (هيكل ، د• محمد حسنين ، الفاروق عمر ، جـ ١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ م ، ص ٢٨٩) •

(١٣٣) أرسل أبوعبيدة أربعة آلاف راحلة محملة بالطعام وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير •

أنفسهم ، كما منع جباته من تحصيل الزكاة أثناء عام الرمادة ، فلما انتعشت الاحوال الاقتصادية أمر الجباة أن يأخذوا من كل قادر حصتين وأن يوزعوا أحدهما علي المعوزين فورا •

وبعد زوال الجدب دعا الاعراب الذين وفدوا للمدينة من البادية الي العودة لاراضيهم وكان يسير بينهم قائلا : " اخرجوا اخرجوا الحقوا ببلادكم " ، وحض الناس علي اعانتهم علي ذلك بالقوت والدواب لنقلهم (١٣٤) •

ولا يحتاج الامر الي تعليق علي حكمة السياسة الاقتصادية والاجتماعية التي اتخذها الخليفة المسلم في مواجهة الازمة الاقتصادية بعد عرض هذا الحشد من الاجراءات والتدابير التي سهر بها الحاكم علي أحوال رعيته من محنتهم وهو دائم التضرع الي الله ـ طوال شهور المجاعة ـ بأن يفك الكرب عن أمته ، وكان يقول : " لو لم أجد للناس مايسعهم الا أن أدخل علي أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتي يأتي الله بالحيا فعلت ، فانهم لن يهلكوا علي أنصاف

٢ ـ الحاكم القدوة والادارة المتطورة :

وكان من ركائز نجاح الاقتصاد الاسلامي والسياسة الاقتصادية والمالية في دولة الاسلام الاولي عدالة الحكام ونزاهتهم وزهدهم في أموال المسلمين ، وهنا يبرز أيضا الخليفة عمر بن الخطاب خير مثل علي أمانة وعدالة الحاكم المسلم •

فقد كان عمر مثالا للعدل والتسوية في المعاملة بين الناس يتصف بالعفة والامانة ، وكان يصر علي أن يأكل مما يتناوله أقل رعيته ، بل كان يقتر علي نفسه فيما يناله من عطاء بيت المال حتي كان يحتاج فيقترض من أمين بيت المال •

---

(١٣٤) هيكل ، المرجع السابق ، ص ٢٩١ •

وكان يتحاشي أن ينتفع أحد من أهل بيته بشيء لا حق له فيه (١٣٥) ، وحسبنا المواقف الاتية من حياة وخلق الخليفة المسلم :

ففي زهد عمر في أموال المسلمين ، ورد عن الاحنف أنه حين سئل عمر عما يحل له من مال الله ، أجاب :

" حلتان حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما أحج به وأعتمر في الظهر ، وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين ، يصيبني ما أصابهم " (١٣٦) .

وفي حزم الحاكم مع عمالة لضمان نزاهتهم ، عن عمارة بن خزعة بن ثابت ، قال : " كان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، اذا استعمل عاملا كتب عليه كتاب وأشهد عليه رهطا من الانصار ، أن لايركب برذونا ، ولايأكل نقيا ، ولايلبس رقيقا ، ولايغلق بابه دون حاجة المسلمين ، ثم يقول ، اللهم اشهد "(١٣٧) .

وقد توخي الرأفة والحلم في معاملة الرعية ، كان عمر يكتب الي أمراء الانصار : أن لكم معشر الولاة حقا علي الرعية ولهم مثل ذلك ، فانه ليس من حلم أحب الي الله ولا أعم نفعا من حلم امام ورفقه ، وأنه ليس جهل أبغض الي الله ولا أعم ضرا من جهل امام وخرقه ، وأنه من يطلب العافية فيمن هو بين ظهرانيه ينزل الله عليه العافية من فوقه " (١٣٨) .

---

(١٣٥) وكان اذا صعد المنبر فنهي عن شيء جمع أهله فقال : " اني نهيت الناس عن كذا ، وأن الناس ينظرون اليكم نظر الطير الي اللحم ، وأقسم بالله لأجد أحدا منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة (محمد الخضرى ، المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦) .

(١٣٦) ابن الجوزى ، المرجع السابق ص ١٠٢ .

(١٣٧) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٢٨ ، وعن الشعبي قال : كان عمر اذا بعث عاملا كتب ماليه (ابن الجوزى ص ١٢٠) .

(١٣٨) ابن الجوزى ص ١١٥ .

وفي تقبل الحاكم لنقد الرعية وعدم استبداده برأيه ، قال سفيان عيينه قال عمر بن الخطاب : " أحب الناس الي من رفع الي عيوبي " (١٣٩) •

أما عن تطور امكانات الادارة وارتقاء أساليبها في ظل دولة الاسلام الاولي فقد أنشئت الدواوين المختلفة (١٤٠) يختص كل منها بقطاع من قطاعات الدولة منها ديوان النفقات لشؤون دار الخلافة ، وديوان بيت المال ويتولي أمر الايرادات العامة والنفقات العامة ، وديوان البريد لشؤون جمع الاخبار والمعلومات عن سائر الامصار وعرضها علي الخليفة ، وديوان التوقيع لتلقي ونظر المظالم والشكاوى وعرضها علي الخليفة ، وديوان البر والصدقات ، وديوان الشرطة •

كما استخدمت في الدواوين المختلفة بالقرن الرابع الهجرى مختلف أنواع السجلات والقيودات كدفاتر قانون الخراج والروزنامج (اليومية) والختمة (شهرية) والختمة الجامعة (سنوية) •••• الخ (١٤١) •

وقد اعتمد البعض من الدواوين المشار اليها – الخراج – في البداية علي لغات موظفيها الاول – الفارسية واليونانية ، ولكن سرعان ماتحولت لغات الدواوين الي العربية بعد تطور العرب وتدريبهم علي الكتابة الحساب وهو ما تقرر في عهد عبدالملك بن مروان (١٤٢) أما دواوين الجند والشرطة القاضي فقد استخدمت العربية منذ البداية وطبقت القواعد الاسلامية (١٤٣) •

---

(١٣٩) السيوطي ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ •

(١٤٠) تعبر كلمة الديوان عن مجموعة القوانين أو النظم التي تتبعها الدولة في شأن من شؤونها ، كما تشمل الجماعات المنوط بها تنفيذ هذه القوانين وكان عمر بن الخطاب هو أول من أسس ديوان الاموال في الاسلام •

(١٤١) الخوارمي ، مفاتيح العلوم ص ٥٤–٥٦ ، راجع أدم متز ، المرجع السابق الفصل السادس •

(١٤٢) ابن عبدربه ، العقد الفريد جـ ٤ ، ص ٣٩٩ •

(١٤٣) د• أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ،المرجع السابق ١٩٧٩•

لامركزية الادارة والحوافـــز :

وقد استخدمت الادارة الاسلامية نظامين يعدان اليوم من أعمدة التقدم في أساليب الادارة ، وهما لامركزية الادارة والحوافز •

ففي لامركزية الادارة ، كان حكم الولايات يجرى من خلال منصبين رئيسيين يكفلان نوعا من الرقابة المزدوجة (والمتبادلة) : منصب الامير وهو قائد الجيش ومنصب العامل أو صاحب الخراج الذى يتولي أساسا جباية خراج الولاية وأداءه الي خزانة الدولة ، وكانت النفقات المحلية في كل ولاية من واقع ايرادات خراجها (١٤٤) فلم تكن خزانة الدولة العامة مسوءولة الا عن نفقات دار الخلافة والدواوين المركزيـة وما يتعلق بنفقات بغداد عاصة الخلافة (١٤٥) •

وكان ازدواج الرئاسة وتقاسم المسوءولية في الولاية بين الامير وصاحب الخراج ـ علي الوجه المذكور ـ مما يكفل عدم تسلط أحدهما واستئثاره بحكم الولاية •

كذلك استخدم نظام الحوافز في ادارة الدولة الاسلامية في القرن الرابـــع الهجرى حيث كان خزان بيت المال يحصلون علي أرزاقهم مما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلفين بدوابهم ، فكانت مرتبات هوءلاء تتوقف علي مقـــدار يقظتهم وعنايتهم في تحرى وملاحقة المتهربين والمخالفين (١٤٦) •

---

(١٤٤) آدم متز ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ ، ويشير الي كتاب الوزراء ص ١١ •

(١٤٥) فكان مايتبقي من حصيلة الخراج بعد نفقات الولاية من الرواتب وأعطيـات الجند يذهب الي بيت المال العام (مسكويه ، المرجع السابق ، جزء ٥ ص ١٩٣) •

(١٤٦) آدم متز ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ •

نظام الحسبة ورقابة الدولة لحماية المستهلك :

ولن يكتمل الحديث عن ادارة النظام الاقتصادى الاسلامي لصالح جماعة المسلمين ، بغير اشارة الي نظام الحسبة في الاسلام ، فبرغم مبدأ الحريةالاقتصادية السالف الاشارة اليه وبرغم اعتماد النظام الاسلامي علي مراقبة الفرد لنفسه من واقع وازعه الديني ، فان النظام الاقتصادى في الاسلام قد تضمن تدخل الدولة لحماية الضعيف ونصرة المظلوم ، وذلك فيما عرف بنظام الحسبة .

وقد نشأ منصب أو اختصاص المحتسب لاول مرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذى كان يطوف في الشوارع والاسواق ويتعرض بنفسه لمن تسول له نفسه غش الجمهور ، أما تنظيم أعمال الحسبة فقد نشأ في العهد العباسي (١٤٧) ، وقد تضمن اختصاص المحتسب مراقبة التجار وأرباب الحرف لمكافحة الغش في تجارتهم أو صناعتهم أو معاييرهم وله أيضا أن يتدخل في تسعير بضائعهم .

٣ — المالية العامة للدولة الاسلامية الاولي :

عندما تكاثرت الاموال الواردة من الخارج في عهد الفتوحات الاسلامية وأصبح من اللازم تنظيم حصرها وتقسيمها ، أشار خالد بن الوليد علي الخليفة عمر بانشاء ديوان للاموال وقال " رأيت ملوك الشام يدونون " (١٤٨) ، وأنشأ عمر الديوان وكان له فروع بالعراق والشام ومصر ، واستعان في ادارة هذه الدواوين بموظفين من الموالي العجم وأهل الكتاب من ذوى الخبرة في البلاد التي فتحها المسلمون .

---

(١٤٦) آدم متز ، المرجع السابق ص ١٥٥ .

(١٤٧) من الكتاب من يرجعه لعهد الرشيد ومنهم من يرجعه لعهد المهدى ، راجع في ذلك : العجلاني ، د. منير ، عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، ١٩٦٥م دار الكتاب الجديد ، ص ٢٣٥ .

(١٤٨) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ١٦ ، ٣٨ .

واشتمل نشاط بيت المال علي النظر في كل مايتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة وأعشار وأخماس وجزية وغير ذلك ، وسمي ب " الديوان السامي " ويعتبر أصل الدواوين ومرجعها .

وهكذا نشأت أول وزارة مالية في الدولة الاسلامية ، تولت القصد في المصروفات والعناية والامانه في الجباية ، مما تحسنت به الحالة المالية للدولة الاسلامية بغير أن تدعو الحاجة الي ارهاق الناس بالضرائب أو الخروج عن سنن الموارد الشرعية الاسلامية (١٤٩) .

وفي العصر العباسي تطورت أساليب ادارة مالية الدولة فقسم ديوان المال الي أربعة دواوين : نفقات الجند والجباية والوظائف ومراقبة الدخل والخرج .

وقدرت الحصيلة الاجمالية للضرائب المستحقة علي كل ولاية بحيث تكون الايرادات العامة معلومة مقدما ، ونظمت الجزية المفروضة علي المسلمين من سكان البلاد بحيث يختلف مقدارها باختلاف الثروات والقدرات المالية للمولين ، كما نظمت الضريبة العقارية مابين خراج علي الارض يلتزم به غير المسلمين وعشور يلتزم بها التجار المسلمون (١٥٠) .

هذا بالاضافة الي المكوس والصدقات وما يتولد من دخل علي ايجار الاراضي البور وميراث الدولة لمن لا وارث له .

---

(١٤٩) د. أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(١٥٠) راجع في بيان ذلك : د. الخضرى ، المرجع السابق ، ص ٩٠- ٩٣ ، حيث أشار المؤلف الي تقسيم الخلفاء لموارد الدولة الي ايرادات ثابتة وايرادات غير ثابتة ، وأن أمر الجباية كان يوكل منذ عهد عمر الي عمال مستقلين .

وساعد انتظام ايرادات الدولة هكذا علي قيام المشروعات المختلفة ، فانشأ المهدى الفنادق والابار وشق طريقا بين بغداد ومكة لتيسير رحلات الحج ، كما خصصت كثير من الاوقاف للانفاق علي المساجد والمدارس ، وعززت ادارة الشرطة لحماية الامن (١٥١) •

وكانت مسؤولية تحصيل الضريبة مسؤولية محددة في حدود المستحق ، يخضع في مباشرتها عمال الجباية للرقابة والمحاسبة ، كما كانت أوجه الانفاق أيضا تخضع لمعايير الصالح العام ، وهي قواعد حددها ميثاق الخليفة عمر :

" لكم علي ألا أجتبي شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهة ولكم علي اذا دفع في يدى ألا يخرج مني الا في حقه •• " •

وقد كتب عمر الي عمال الخراج : " أما بعد ، فان الله خلق الخلق بالحق فلايقبل الا الحق ، خذوا الحق ، واعطوا الحق به ، والامانة الامانه قوموا عليها ، ولاتكونوا أول من يسلبها ••• والوفاء الوفاء لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خصم لمن يظلمهم " (١٥٢) •

كما أخرج ابن سعد عن ابن عمر أن عمر أمر عماله وكتبوا أموالهم ، منهم سعد بن أبي وقاص ، فشاطرهم عمر في أموالهم ، فأخذ نصف وأعطاهم نصفا (١٥٣) ، وفي مصر أسس حاكمها الاخشيد نظام مصادرة العمال وفرض الاموال عليهم وطبق ذلك بقوة (١٥٤) •

---

(١٥١) أ • سيديو ، المرجع السابق ص ١٩٠ـ ١٩٣ •
(١٥٢) الخضرى ، المرجع السابق ص ١٦ •
(١٥٣) السيوطي ، المرجع السابق ص ١٤١ •
(١٥٤) متز ، المرجع السابق ص ١٦٤ •

واشتهرت قولة عثمان بن عفان في تذكرة وتوجيه عماله للرأفة بالمسلمين في جمع الاموال : " الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم في أن يكونوا جباة ، الا وأن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم " (١٥٥) •

وقد تضمن تنظيم المسلمين لمالية الدولة في العصر العباسي الاخذ بأسلوب اللامركزية فأخذ بذلك الوزير نظام الملك الطوسي في العهد السلجوقي ، وذلك في صدد تحصيل خراج الارض الزراعية ، حيث كان ذلك بهدف التشجيع علي استصلاحها (١٥٦) •

أما عن ضوابط انفاق مال المسلمين ، فبالاضافة الي ما أشرنا اليه في ميثاق عمر عند توليه الخلافة ، روى عن مالك بن أوس " كان عمر رضوان الله عليه يحلف علي أيمان ثلاث ، يقول : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق له من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد الا وله في هذا المال نصيب ــ الا عبدا مملوكا ــ وكلنا علي منازلنا من كتاب الله تعالي ••• فالرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعي في مكانه " (١٥٧) •

وهكذا تتقرر المبادئ العامة لاتجاهات الانفاق العام فيما ينتفع به الكافة علي وجه سواء كل بقدر عمله وكل بقدر حاجته ، وحق القاضي مكفول قبل الداني •

---

(١٥٥) فوزع النواحي في شكل اقطاعات علي رؤساء الجند ، بحيث يتعهد كل منهم بسداد مبلغ من المال لخزينة الدولة مقابل استثماره للاراضي التي أقطعت له (السبكي ، المرجع السابق ، ص ٣١٧) •

(١٥٧) ابن سعد ، الطبقات جـ ٣ ، ص ٢٩٩ •

واذ لم تكن أبواب الانفاق العام وبنوده قد تحددت آنئذ بما يجرى عليه الان تقسيم وتبويب الميزانيات العامة ، فان الامر كان يرجع لما تحدده قواعد الشريعة ، مع حرص ويقظة الضمير لدى الحاكم علي وضع كل درهم في موضعه من سد حاجات المسلمين ، يعبر عن ذلك فرط حرص الخليفة عمر وقلقه علي مسوءوليته - في هذا الصدد بقوله : " فيما يوءمن عمر لو هلك ، وذلك المال عنده لم يضعه في حقه " (١٥٨) وبرغم هذا المدى من النزاهة ويقظة الضمير لدى الخليفة المسلم فقد تميز تقرير سياسة الانفاق العام في هذا العهد بمبدأ الشورى وديمقراطية القرار وفي الواقعة الاتية مثال عظيم :

عندما اجتمع عند عمر رصيد ضخم من أموال المسلمين بلغ ثمانمائة ألف درهم مما جباه أبو موسي الاشعرى ، اجتمع عمر الي نفر من أصحاب رسول الله (ص) فقال لهم : " انه قد جاء الليلة مالم يأتهم منذ كان الاسلام ، وقد رأيت رأيا فأشيروا علي أن أكيل للناس بالمكيال " فقالوا : " لاتفعل يا أمير الموءمنين ان الناس يدخلون في الاسلام ويكثر المال ، ولكن أعطهم علي كتاب ، فكلما كثر الاسلام وكثر المال أعطيتهم " قال : " فأشيروا علي بمن أبدأ منهم ٠٠٠٠" الي أن وضع عمر الديوان وبدأ برسول الله (ص) ثم الاقرب اليه فالاقرب ٠٠(١٥٩)

---

(١٥٨) ابن الجوزى (عن أبي هريرة) ، المرجع السابق ص ١٠١ ٠

(١٥٩) ابن الجوزى ، المرجع السابق ص ١٠١ ٠

ولنقارن تلك المبادئ بما يجرى عليه انفاق الكثير من الاموال العامة الان - وفي دول اسلامية - في مظاهر أقرب للترف والبذخ والتفاخر المظهرى منها الي سد حاجات المسلمين الاساسية ، بل ان من الاموال ما ينفق بسخاء علي الدعاية لنظام الحاكم وتأييده ضد خصومه أو لتعزيز قوة أعوانه ، هذا فضلا عما يوجد منها لموءسسات اعلام أو ترفيه تقدم اللهو أو المتعة بما لا يتفق الكثير منه مع تعاليم الاسلام وقيمه ٠

المبحث الســـــادس

التأثير الحضارى للاقتصاد الاسلامي علي أوربا والعالم

" كنتم خير أمة أخرجت للناس " (آل عمران ١١٠)

ان حضارة الغرب المعاصرة ليست منبعثة الصلة والتأثير بما سبق من حضارات غذتها بألوان من المعرفة وأمدتها بجوانب من تراثها ، فكما يقرر بعض المفكريـــــن (١٦٠) " كل أمة انما هي تطور من حضارات الامم التي سبقتها في موضعها من العالم علي الاكثر وفي غير موضعها علي الاقل " واننا ندرس كل حضارة بالاضافة الي الزمن الذى كانت فيه ، ومن هذا المنظور ينبغي أن نقيم التأثير الحضارى للاسلام وانجازات نظامه الاقتصادى علي عالم اليوم ، وينبغي أن نتمثل في تأمل تاريـــخ الاسلام " ان تاريخ أى أمة ، انما هو تاريخ حضارتها ، كما أن عظمة الامة هي في طول الفترة التي حملت خلالها مشعل الحضارة وعمق الاثر الذى خلفته حضارتها فـــي حياتنا " (١٦١) .

وعندما نريد أن نتابع أثر الاقتصاد الاسلامي علي تقدم أوربا اجتماعيـــا وثقافيا واقتصاديا ، فاننا نرجع الي تاريخ بدء اتصال الاسلام بالغرب منذ رسائـــل الرسول (ص) الي قيصر ثم حروب أبي بكر وما تلا ذلك من فتح الاندلس وصقليـــة ، وكذا احتكاك المسلمين بالغرب من خلال الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين من الزمان ، حيث كانت فترات الهدنة التي تخللت الحروب المذكورة تتيح تعاملا مباشرا بين المسلمين وشعوب أوربا .

---

(١٦٠) عمر فروخ ، العرب في حضارتهم وثقافتهم ، المرجع السابق ص ٤ ، ٥
ويضيف الكاتب : واننا نجانب الانصاف اذا حكمنا علي الحضارة الجاهليـــة بما وصل اليه اليونان في الفلسفة في أيامهم ، فللجاهليين وللامويين مثلا أوجها مادية من الحضارة لاتقتصر عما عندنا أو عند بعضنا اليوم .

(١٦١) المرجع أعلاه ص ٥ .

ويؤكد المؤرخون أن حضارة الاسلام التي تكونت خلال الفترة المشار اليها كانت من التميز في مجالات الانتاج والمعرفة والمخترعات والفنون علي وجه بهر الاوربيين وفاجأهم ، ووصف البعض التفوق الحضارى للمسلمين في تلك الاونة بالقول بأن : " جميع ذلك تأثرت به أوربا بحيث يمكن القول بأن العرب كانوا أساتذة الاوربيين في جميع فروع المعرفة ، ... مما يعد حقيقة ناصعة لامفر من الاعتراف بها " ومما يجب أن يرفع في أعيننا الامة العربية التي ازدريناها زمنا طويلا (١٦٢) .

فمن قرطبة بأسبانيا العربية ، انطلقت أشعة المدنية الاسلامية في فترة كانت عواصم أوربا خلالها لاتزال ترزح تحت وطأة البدائية والقذارة ، فهيأ لها الحكم الاسلامي مكانة جعلتها الدولة الوحيدة في أوربا التي تحررت من عصور الظلام "١٦٣

وكانت أبرز جوانب التأثير لحضارة الاسلام علي أوربا واقتصادها : هي الاثر علي التقدم الفني في الانتاج بقطاعاته المختلفة ، والتأثير في مجالات الثقافة والعلوم والاداب ، ثم في توعية شعوب أوربا للتخلص من الاقطاع والاقتصاد العبودى.

تأثير الحضارة الاسلامية علي التقدم الفني للانتاج في أوربا :

فكان تأثير المسلمين علي الانتاج الزراعي في الاندلس واضحا بحكم مهارة المسلمين القادمين من الشام وشمال أفريقيا وخبرتهم بشؤون الزراعة ، فاختاروا من المزروعات والحاصلات مايلائم التربة والمناخ في أسبانيا (١٦٤) وحسنوا الرى والصرف أدخلوا نظام زراعة المدرجات الزراعية علي الجبال وأقاموا السدود لتوفير

---

(١٦٢) سيديو ، تاريخ العرب العام ، المرجع السابق ص ٢٠٦ ،ص ٤٢٥ . انظر كذلك Hearshow علم التاريخ ، الترجمة العربية ص ٦٢ ، د. أحمد شلبي ، الفكر الاسلامي ص ٤٧ .

(١٦٣) Coke, Richard, The City of Peace, p. 61.

(١٦٤) فأدخلوا بعض الحاصلات التي لم تعرفها الزراعة في أوربا من قبل ، مثل الحنطة والكتان والقطن والقنب والموالح وقصب السكر .

مياه الرى مما ساعد علي اتساع رقعة الاراضي المنزرعة ، كما استحدثوا أساليب زراعية قائمة علي الترصد والتجربة وأحيوا موات الارض (١٦٥) •

وفي الصناعة أدخل المسلمون الي أسبانيا صناعات المنسوجات الحريرية والجوخ والورق والفرش الجلدية والنعال والزيوت ، كما نشطت في صقلية صناعة المسلمين حيث أنشأوا مصانع للملابس الفاخرة ومنتجات الجلود والورق ، مما انتقل فيما بعد الي ايطاليا ، كذلك نشطت استخراج المعادن من مناجم صقلية بفضل المسلمين فاستخرجوا الذهب والفضة والحديد والرصاص (١٦٦) •

كذلك انتعش النشاط التجارى بأسبانيا مع دخول المسلمين بما لديهم من مواهب تجارية ، كما نشط أسطول العرب التجارى في حمل تجارة أسبانيا من صادرات وواردات •

وأصبح المسلمون سادة البحر الابيض المتوسط في القرن السابع الميلادى وما بعده ، وعلي أيديهم تعلم الايطاليون والفرنسيين المصطلحات التجارية المختلفة•

وفي فنون البناء وهندسة المعمار كان تأثير الحضارة الاسلامية في أسبانيا مبهرا حتي وصف البعض نشاط المسلمين في تعمير مدنها الخالية بأنهم " زينوا جيدها بأفخم المباني " (١٦٧) كما نقل عن ابن خلدون وصفه : فاننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة ••• وحسن الترتيب في البناء والانية •••• " (١٦٨) •

---

(١٦٥) ولاتزال في اللغة الاسبانية بعض المصطلحات الزراعية العربية كالساقية والناعورة ومن أسماء النباتات القطن والارز والرمان والمشمش (سيديو ، المرجع السابق ص ١٦٥ ، أنور رفاعي ص ٢٨٠ وما بعدها) •

(١٦٦) أحمد مصباح ، المرجع السابق ص ٢١٠ •

(١٦٧) سيديو ص ١٦٥ •

(١٦٨) الرفاعي ص ٣٠٥ •

أثر الاسلام علي أوربا في مجالات الثقافة والعلوم الاداب :

عندما بلغت حضارة الاسلام أوربا بددت ظلام الجهل السائد بانتشار علوم المسلمين وآدابهم وفلسفتهم ، حيث أصبحت بغداد والبصرة والقاهرة ودمشق مصادر اشعاع حضارى ومراكز للعلوم والمعارف في الوقت الذى كانت به عواصم أوربا أشبه بالقرى الخالية من كل مايشد الناس اليها من ألوان المعرفة .

وكانت بلاد المسلمين تغص بالعلماء والمكتبات الكبيرة ، وانطلقت علوم العرب من البلادالاسلامية الي أوربا عن طريق جزيرة صقلية والاندلس وايطاليا والشام .

وفي أسبانيا علي وجه الخصوص ازدهرت ثقافة المسلمين وأقاموا المكتبات العامة والجامعات والمدارس وأنشئت في طليطلة سنة ١١٣٠ م مدرسة للترجمة ترجمت الكثير من الكتب العربية الي اللاتينية ، كما نقلت المؤلفات اليونانية ـ التي كانت أصول بعضها قد اندثرت ـ الي العربية ، وأصبحت المراجع العربية في الفلك والعلوم الطبيعية والرياضيات مصدر المعرفة للاوربيين .

وفي صقلية أنشئت في عهد المسلمين أول مدرسة للطب كانت الاولي من نوعها في أوربا ومنها انتشر تعليم الطب الي ايطاليا ثم فرنسا وسائر أوربا ، كذلك تقدمت في ظل الحكم الاسلامي فنون العمارة وهندسة البناء في صقلية كما انتشرت أسماء الموازين والمكاييل (١٦٩) .

وبوجه عام فان تأثير ثقافة المسلمين والفكر الاسلامي علي حضارات العالم المختلفة أمر لايمكن انكاره ، حيث تدين الحضارات المعاصرة بالفضل لحضارة الاسلام ، كتأثير الشريعة الاسلامية علي الهند الوثنية بعد الفتح الاسلامي والدعوة

---

(١٦٩) د. أحمد مصباح ، المرجع السابق ص ٢١١ ، ٢١٢ .

الي التوحيد وتأكيد مبدأ المساواة ، مما تميزت به الشريعة الاسلامية ، وأقر بـــه المفكرون الغربيون في أوربا والشرقيون في آسيا (١٧٠) ٠

الاسلام وتوعية شعوب أوربا للتخلص من الاقتصاد العبودى والاقطاع :

تضمن الاسلام نظام اجتماعي واقتصادى أعفي الشرق الاسلامي من الاقطـاع ـ الذى مرت به أوربا في القرون الوسطي ـ بمعناه الاصطلاحي والتاريخي ٠

وابان الحروب الصليبية قدم الصليبيون الغربيون الي الشرق يحملون معهم نظمهم ومفاهيمهم ، فأسسوا دولة في سورية تقوم علي العلاقات الاقطاعية حيث الاراضي الزراعية بعضها في أيدى جماعات الدوية والاستبارية والبعض الاخر فـــي أيدى الزراع ، ولكن سرعان ما تأثر المسيحيون الذين لامسوا المجتمع الاسلامـــي الشرقي بحضارة الاسلام التي ترفض الاقطاع وما يتضمنه من عبودية ، وحدث ذلك التحول أثناء القرن الثاني عشر الميلادى الذى كانت فيه سوريا مركزا للعلاقات بين المسيحية والاسلام في شرق بحر الروم (١٧١) ٠

فقد تشرب الاوربيون خلال الفترة المشار اليها روح التحرر من الاقتصـاد العبودى الذى ساد أوربا في عهود الاقطاع ، بعد أن شاهدوا في فلسطين كيف تقوم علاقات الانتاج والعمل في الاسلام علي احترام كرامة الفرد وليس علي الاسترقاق والعبودية ، الامر الذى خلف لدى الاوربيون وعيا بدأت معه مقاومة ورفض النظـام الاقتصادى الاقطاعي السائد في أوربا ، بما أسفر عنه ذلك من شيوع مبدأ المساواة والتقارب بين الطبقات ٠

---

(١٧٠) السمان ، محمد عبدالله ، الفكر الحضارى لدى فقهاء المسلمين ، ندوة الشباب الاسلامي ، الاسلام والحضارة ،١٩٧٩م المجلد الاول ص ٤٣٤ ٠

(١٧١) عثمان ، محمد فتحي أضواء علي التاريخ الاسلامي ، مطبعة الجهاد ، القاهره ص١٠٦ (ويشير المرجع الي : باركر أ ٠ تراث الاسلام ج ١ فصل الحروب الصليبية ـ ترجمة أحمد عيسي) ٠

وكان ذلك التأثير من جانب المجتمع الاوربي بمبادئ الاقتصاد الاسلامي بصورة غير مباشرة ، من عوامل تقويض النظام الاقطاعي في أوربا ، وكان ذلك سبيلا لتحرير عبيد الارض من الالتزامات القاسية التي كانوا ينوءون بها لصالح سادة الاقطاع (١٧٢) •

قيم الاقتصاد الاسلامي والنظم الاقتصادية للحضارات المعاصرة :

ان حضارة الاسلام التي انبثق عنها نظامها الاقتصادى خلال فترة القرون الوسطي لتتضمن من المبادئ والقيم ماتزهو ببعضه النظم الاقتصادية المعاصرة ، فمبادئ الملكية الفردية والحرية الاقتصادية كما دعا لها أنصار النظام الرأسمالي من الاقتصاديين والتقليدين هي أصلا من دعائم النظام الاقتصادى الاسلامي ، لولا أن الاخير يفضل الرأسمالية الغربية في رفضه للاحتكار وتركيم رأس المال في أيدى قلة علي سبيل الاكتناز ، كما يعارض الاسراف في الاستهلاك واساءة استخدام حق الملكية فيما يضر بالصالح العام •

كذلك فان ربط الاقتصاد في النظام الاشتراكي بمصلحة المجتمع التي تعلو مصلحة الفرد ، قد سبق اليه النظام الاقتصادى الاسلامي قبل مذاهب الاشتراكية - في القرن التاسع عشر - بقرون عديدة •

---

(١٧٢) أحمد شلبي ، النظم الاقتصادية في العالم عبر العصورر وأثر الفكر الاسلامي فيها ، المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ •

وهذا مايرى معه البعض (١٧٣) أن الاشتراكية الاوربية في مفاهيمها السائدة انما ترجع " الي مزيج من الفكر الاسلامي والبيئة الاوربية " حيث استوحي المفكرون الاشتراكيون ـ علي الارجح ـ ما انساب الي أوربا من اتجاهات اقتصادية اسلامية عن طريق الاندلس وصقلية وفلسطين (١٧٤) ٠

وهذا السبق والتفوق في حضارة الاسلام ونظامه الاقتصادى الذى حقق من الانجازات ما عرضنا لبعضه في الصفحات السابقة هو مايدفع ببعض المؤرخين المحدثين (١٧٥) للدعوة الي تكريس الجهود لاجل أن تواصل الحضارة الاسلامية حياتها وتجددها في صورة معاصرة تشارك في التقدم التكنولوجي العالمي ٠

---

(١٧٣) د٠ أحمد شلبي ، النظم الاقتصادية عبر العصور ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ ٠

(١٧٤) هذا فضلا عما اقتبسه المستشرقون ورجال الكنيسة من مبادئ الاقتصاد الاسلامي عندما اتجهوا لدراسة الفكر الاسلامي ، فوجد " من مفكرى الغرب من يحملون اتجاهات العدالة الاجتماعية التي وضع الاسلام لها قانونا دقيقا " ، وكانت بذلك " تحركات الاشتراكية صدى للاسلام بطريق أو بآخر " (المرجع أعلاه ص ١٢٥) ٠

(١٧٥) عثمان ، محمد فتحي ، القيم الحضارية في رسالة الاسلام ، ندوة الشباب الاسلامي : الاسلام والحضارة مارس ١٩٧٩م ، المجلد ١ ص ١٠٢ ٠

" خاتمـــــة "

في مضمار التطور التاريخي للحضارات التي عرفها العالم ، يتبوأ العامـــل الاقتصادى أهمية خاصة لما يحدده من كيفية سلوك الانسان في تعامله مع الطبيعــة وكفاحه من أجل العيش ومسعاه لتحقيق رفاهيته المادية والمعنوية ، وهي أهمية ليست بضرورة علي الوجه الذى يزعمه المذهب المادى في فلسفته الحتميـــــة التاريخية ٠

ويتصدى البحث لبيان السمات الحضارية البكرة التي تضمنها واقع الاقتصاد الاسلامي في فترة القرون الوسطي التاريخية بالمقارنة علي عوامل النهضة الاقتصادية التي ظهرت بعد ذلك في أوربا ٠

ويعرض الباحث في ذلك للقيم الاسلامية التي استظل بها الاقتصاد الاسلامي في أوج ازدهار الحضارة الاسلامية ، مما مثل ثورة اجتماعية اقتصادية مبكرة ، فيما تضمنه الاسلام من حضارة ذات معطيات ثابتة حول محور واضح ، يتحدد وفقا له اطار الغايات والوسائل في حياة الانسان ، حيث الغاية الثابتة هي تحقيق الانسان لخلافة الله في الارض ، والوسائل المرنة هي أنشطة الانسان لاشباع حاجاته كما تمثلت ثورة الاسلام في فصل قيمة الاقتصاد عن قيمة الانسان ، حيث يكون الاول في خدمة الاخير وليس العكس ، وكذا في تعزيز الاسلام لقيمة الفرد وتكريمه علي سائر مخلوقاته مع مساءلته لصالح الدين والمجتمع ، مساءلة تحكمها القيم الاسلامية وفي مقدمتها تحرم أدوات طغيان الانسان وظلمه لغيره كالربا والاحتكار والرشــوة ٠٠٠٠ الخ ٠

كما عرض الباحث لادوات التحول الاجتماعي والثقافي التي تحققت بها ثورة الاسلام الحضارية ، فانطلق بها الاقتصاد الاسلامي في تجربته المزدهرة بفضـل العدالة الاجتماعية ونظام الزكاة وضمان حق الفقير في عيش كريم ، وبفضل اطلاق الفكر الانساني فيما كرم به الاسلام العلم والعلماء وما دعم به الخلفاء المسلمون الحركة العلمية في زمن أهملت فيه أوربا ذلك ٠

وتوقف الباحث عند محتوى التطور الكبير في الاقتصاد الاسلامي ، من تحولات جذرية في علاقات الانتاج والقوى المنتجة ، حيث عرض لظواهر كانت لها أهميتها المحورية في التطور المذكور ، كبروز دور الفئات المنتجة في شكل طبقة متوسطة تشبه فئة المنظمين في نهضة الاقتصادالاوربي ، ويشبهها البعض بطبقة البرجوازية حيث لعبت الطبقة المذكورة في الاقتصاد الاسلامي كفترة القرون الوسطي دورا خطرا في توجيه الحياة الثقافية والفكرية ، بل احتلت موقفاً موءثرا في الحياة السياسية ، فضلا عما اضطلعت به من نشاط كبير بروح المبادرة الخلاقة في التجارة والانتاج .

وأبرز الباحث أهم الفعاليات التي عكسها وجود الطبقة المتوسطة ـ المشار اليها ـ علي النشاط الاقتصادى في الدولة الاسلامية ، من شيوع جو الحرية الاقتصادية وربط النشاط الاقتصادى بالقيم الدينية التي تبدأ بتقوى الله وطلب المثوبة في الاخرة وتحرير الاقتصاد من النزعة المتصوفة التي تدعو لنبذ النشاط الدنيوى ، فضلا عن اشاعة مبدأ التخصص وتقسيم العمل في الانتاج .

كما أوضح الباحث ماتضمنه التحول الجذرى لعلاقات الانتاج من كفالة الاقتصاد الاسلامي لمبدأ تكافوء الفرص ، في الانتفاع بوسائل الانتاج الرئيسية ، وخاصة الارض الزراعية ، حيث تمثل هذا الاتجاه في مقاومة الخلفاء المسلمين للاقطاع الزراعي عندما لاح للمقاتلين المسلمين السعي للاستحواذ علي مساحات كبيرة من الارض التي غطتها الفتوحات الاسلامية ، مما كان ينذر بقيام ارستقراطية عسكرية علي حساب حق الكافة من المسلمين .

ومن خلال عرض لتطور الانشطة الانتاجية الرئيسية في ظل الاقتصاد الاسلامي ، تناول الباحث توسع نشاط كل من الزراعة والصناعة ونمو أمكانياتها وتطور أساليبها الانتاجية ووسائلها وتنويع منتجاتها ، فضلا عن تطور علاقات الانتاج في اتجاه الحد من سيطرة الفئات المالكة علي الفئات العاملة .

كما عرض للتقدم العلمي الذى حققه المسلمون ، فانعكس علي التقدم الفني في الصناعة والملاحة ، وكذا تقدم التنظيم الصناعي ، مما كفل الحرية الاقتصادية وتطبيق مبدأ تقسيم العمل ، وأسفر كل ذلك عن ارتفاع كبير في مستوى الكفاءة الانتاجية ، كما توطنت الصناعات في مناطق تحققت في اطارها وفورات الانتاج الكبير ، وجرى تناقل الصناعات عبر دول البحر المتوسط بفضل انتشار الاسلام ونمو التبادل التجارى ، كما جرى تبادل المواد الخام والخبرات الفنية اللازمة للصناعة .

كما عرض البحث لنمو وانتعاش التجارة وتقدم نشاط النقل البحرى والبرى بين البلاد الاسلامية وغيرها من دول العالم ، حيث تنوعت السلع المتبادلة ، وتمتعت العملات الاسلامية بالقبول في سائر الدول وأرسي المسلمون قواعد في الملاحة البحرية شاعت في أوربا فيما بعد .

وتناول البحث دور كل من السياسة الاقتصادية والمالية - في دولة الاسلام الاولي - في تحقيق النمو والرفاهية ومواجهة الازمات الاقتصادية ، حيث كان للحاكم القدرة والادارة المتطورة دورهما الكبير في اشاعة جو العدالة ورقابة ومحاسبة عمال الدولة ، بما يكفل بعث حوافز الافراد في نشاطهم الاقتصادى .

كما عرض البحث في ايجاز لتطور تنظيم المالية العامة للدولة الاسلامية الاولي منذ انشاء بيت المال - كأول وزارة للمالية في الدولة المذكورة - ليتولي كل مايتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة وأعشار وجزية ... الخ ، ثم انقسامه بعد ذلك الي دواوين نوعية يختص كل منها بشأن من الشؤون ، وكيف حددت مسؤولية عمال الجباية وأخضعت للرقابة والمحاسبة بما يكفل عدالة وملاءمة التحصيل الضريبي ، كما استخدم معيار الصالح العام لتوجيه انفاق أموال المسلمين .

وأخيرا ، عرض الباحث لجوانب التأثير الحضارى التي نفذ بها الاقتصاد الاسلامي بمبادئه واستقامة تجربته الي حضارات العالم المعاصرة - وخاصة حضارة أوربا - التي احتكت بالمسلمين عند امتداد فتوحاتهم الي بعض دولها وعند بلوغ جحافل الجيوش الصليبية الي الشرق ، حيث شاهد الاوربيون من معالم حضارة الاسلام ما أدهشهم ومن مقومات الاقتصاد الاسلامي المتحرر من العبودية والاقطاع ما حفز وعيهم للتخلص من نظامهم الاقطاعي ، هذا فضلا عن تأثير الاسلام علي أوربا في التقدم الفني للانتاج وفي كافة مجالات الثقافة والعلوم .

وفي دراسة وتأمل تاريخ الاقتصاد الاسلامي من منظور التقدم الحضارى ، ماينبه الاقتصاديين - مسلمين وغير مسلمين - الي جدوى ونجاح التجربة كما أكدتها أحداث الواقع التاريخي حيث كان قوام نجاحها ، روح الاسلام وقيمه الاخلاقية التي تفاعلت مع نظامه الاقتصادى .

****

المراجـــــــع

١ – ابراهيم ، حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ط ٩ ، جـ ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٥ م •

٢ – باركر ، أ ، تراث الاسلام ، ترجمة أحمد عيسي جزء ١ •

٣ – البهي ، د• محمد ، الاسلام والاقتصاد ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨١ م •

٤ – جواثياين ، س ، د•• ، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، تعريب وتحقيق د• عطيه القوصي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٨٠ م •

٥ – الجوزى ، أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزى ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، تحقيق زينب القاروط ، دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٠م •

٦ – الحبيشي ، أبو عبدالله محمد الوهابي ، البركة في فضل السعي والحركة ، دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ م •

٧ – حسين ، د• وجدى محمود ، مذكرات في التطور الاقتصادى لطلاب جامعة المنصورة ، مكتبة الجلاء المنصورة ١٩٧٩ م •

٨ – حسين ، د• وجدى محمود ، السبق الحضارى للفكر الاقتصادى الاسلامي ، بحث مقدم الي المؤتمر العلمي السنوى الثالث ، المنهج الاقتصادى في الاسلام بين الفكر والتطبيق ، جامعة المنصورة ونقابة التجاريين ، القاهرة ٩ – ١٢ ابريل ١٩٨٣ م •

٩ – حتي ، تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع ط ٣ القاهرة ١٩٥٢ م •

١٠ـ الخضرى ، محمد ، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج ١ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٩ م .

١١ـ خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون ، المقدمة ، طبعة وافي ج ١ .

١٢ـ الخوارزمي ، مفاتيح العلوم .

١٣ـ الدورى ، د. عبدالعزيز ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، دار الطليعة بيروت ١٩٦٩ م .

١٤ـ الرفاعي ، أنور ، الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر دمشق ١٩٧٣ م .

١٥ـ الزبيدى ، العراق في العصر البويهي .

١٦ـ الزهراني ، محمد مسفر ، نظام الوزارة في الدولة العباسية : العهدان البويهي والسلجوقي ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠ م .

١٧ـ السبكي ، طبقات الشافعية ج ٤ .

١٨ـ سيديو ، ل ، أ تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، عيسي الحلبي ، ط ٢ ، ١٩٦٩ م .

١٩ـ السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، ط ١ ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٥٢ م .

٢٠ـ السمان ، محمد عبدالله ،الفكر الحضارى لدى فقهاء المسلمين ندوةالشباب الاسلامي ، الاسلام والحضارة ١٩٧٩ م ، المجلد الاول .

٢١ـ شلبي ، د. أحمد ، الفكر الاسلامي منابعة وآثاره ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٨ م .

٢٢ـ شلبي ، د. أحمد ، النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور ، أثر الفكر الاسلامي فيها ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ م .

٢٣ـ شلبي ، د. أحمد ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

٢٤ ـ شلبي ، د.أحمد ، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ج ١ ط ١٩٧٤م القاهرة .

٢٥ـ ضناوى ، محمد علي ، الحضارة الاسلامية بين التحدى والتعطيل ، الندوة الرابعة للشباب الاسلامي ١٩٧٩ م .

٢٦ـ ابن عبدربه ، العقد الفريد ج ٤ .

٢٧ـ ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز .

٢٨ـ عثمان ، محمد فتحي ، التاريخ الاسلامي والمذهب المادى في التفسير الدار الكويتية ط ١ ، ١٩٦٩ م .

٢٩ـ عثمان ، محمد فتحي ، القيم الحضارية في رسالة الاسلام ، ندوة الشباب الاسلامي : الاسلام والحضارة مارس ١٩٧٩ م المجلدالاول .

٣٠ـ عثمان ، محمد فتحي ، أضواء علي التاريخ الاسلامي ، مطبعة الجهادالقاهرة.

٣١ـ عجمية ، د. محمد عبدالعزيز ، التطور الاقتصادى في أوربا والوطن العربي دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠ م .

٣٢ـ عفيفي ، د. أمين مصطفي ، د. أحمد عبدالكريم ، تاريخ أوربا الاقتصادى مكتبة الانجلو المصرية ط ٢ ، ١٩٥٤ م .

٣٣ـ فروخ ، عمر ، تاريخ الفكر العربي الي أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٢ م .

٣٤ـ كار ، ادوارد ، ماهو التاريخ ؟ ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م .

٣٥ـ متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبدالهادى ريدة ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٦٧ م ، جـ ١ .

٣٦ـ مسكويه ، تجارب الامم ، جزء ٢ .

٣٧ـ مصباح ، د. أحمد ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م .

٣٨ـ المقريزى ، طبعة الخطط ، ١٩٥٣ م ، جـ ٢ .

٣٩ـ الميداني ، عبدالرحمن حسن ، أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ، ط ٢ دار القلم ، بيروت ١٩٨٠ م .

٤٠ـ Bhatia, H., History of Econ. Thought, Vikas House, Ghaziabad, India, 1980.



